حيرة الشاذلي في مسالك الأحبَّة

محمد جبريل

حيرة الشاذلي في مسالك الأحبَّة

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

حيرة الشاذلي في مسالك الأحبَّة

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٠١ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٢١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

بسم الله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. حسبي الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، ولا قوة إلا بالله. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. رب اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات. و﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

١

تبدَّلَت صورة الميدان؛ هُدم الكثير من البنايات القديمة، أُقيمت محلَّها عمائر، أو ظلَّت خرائب، زادت حركة المرور، لكن الملامح التي أَلِفت رؤيتها ظلت قائمة في الدحديرة الفاصلة بين جامع المرسي وزاوية الست مدورة، وفي ميدان الأئمة، تتوسطه أضرحة أولياء الله، ومئذنة جامع ياقوت العرش وقِبابه، والشوارع المفضية إلى السيالة وشاطئ الأنفوشي ورأس التين، والطريق المنحدرة إلى الحجاري والموازيني.

اخترقتُ الشوارع بإحساس الغربة عما حولي.

أذكر أول عبوري إلى مصر في عهد الملك الكامل الأيوبي، هي الشوارع القديمة التي سلكت بعضها، أو ما كان موجودًا في أزمنة بعيدة. ترتبط ذاكرتي بشخصيات وأماكن ورؤًى وامضة.

ربما أخلِّي سبيل خطواتي، يغيب المقصد، مجرد السير، والفرجة، والتوقف أمام المشاهد التي تلفت النظر. أُسرع في خطواتي، أو أبطئ. أتأمل ما أراه ببصيرتي، وليس ببصري، اعتدت غمامة العين — لإهمال علاجها — أيام إقامتي في الإسكندرية، انعكس بصري على بصيرتي، فصرت كلِّي مبصرًا.

أسير إلى جوار الناس، أرى — من حيث أسير، أو أقف — كلَّ شيء دون أن يراني أحد، لا يراني وإن لامستُه، يذوب المرء في الصوفية حتى يشفَّ، لم يَعُد الناس يرَونني، أراهم ولا يرَونني، أخاطبهم، أهتف في خواطرهم، دون أن يتبيَّنوا مصدرَ الصوت.

أرى — بقدرة الله — ما حولي في كل اتجاه، دون أن أتلفَّت. لا أحد من الناس يراني، إلا من أريد — بإذن الله تعالى — أن يراني، في منام كالصحو، أو صحو كالمنام.

حتى من لا يراني، أو أراه، من الأولياء جسدًا حيًّا، فأنا أراه بالكشف، مثلما يراني بالوسيلة نفسها. منحَنا الله الكشف، لا تحجبنا الجدران، ولا تبعدنا المسافات عن رؤية ما يهمنا رؤيته. الكشف — كما تعلم — هو حق اليقين، نور اليقين، عين اليقين.

أعددت نفسي لاحتمالات كثيرة، أعرف أين تتجه خطواتي. أسير، وأسير، دون أن ألحظ حتى الشارع الذي مِلت إليه، يساعدني على السير — فيما يشبه الهرولة — طولُ البنية والساقين، ومَيلي إلى النحافة. في بالي ما أفكر فيه، أو أفعله، أخذني التطلع إلى البنايات والشوارع والأسواق، كأني أستعيد الصور، أو أريد أن تثبت في ذاكرتي. يداهمني الحنين إلى ما لا أتبيَّنه.

التصور كالومضة: هل كل ما حولي على ما كان عليه؟

تركتُ حُميثرا في انتباهة عين، غادرت المقام، انطلقت من الوادي المسمَّى باسمي، بين جبلَي حميثرا والمظلوم، ورائي سلاسل الجبال القصيرة في المدى إلى انتهائه في بحري. خلَّفتُ المريدين والزوار، والتكبيرات والأذكار والأوراد والأحزاب، والأدعية والابتهالات، والتهليل والإنشاد، والمدائح والتواشيح والمواويل والأشعار والأراجيز والزغاريد. خلَّفتُ كل شيء، وسرتُ وحيدًا. دافعي إمامتي للأولياء والصوفية، مقصدي التعرف إلى أحوال أهل الطريق، رجال الحقيقة، العلماء والزهاد والعارفين، أرباب القصد والوسيلة والفضل والثقة.

يزور آلاف المريدين ضريح حميثرا، من يعجزون — لسبب ما — عن الزيارة، ها أنا ذا أبادر فأزور أولياء الله، أقطاب الفِرَق المتفرعة من الشاذلية، نتدارس المشكلات، وسبل حلها. لا أنشئ محكمة أخرى للديوان. لرئيسة الديوان توقيرها، ولأعضائه المبجَّلين عرفاني بمكانتهم، ومحبتي، إنما أستحثُّ الأولياء على المراجعة، وإعادة النظر بما يبدِّل الصورة. تذوي المشكلات، أو تتلاشى. تقتصر زيارتي على من تشغلهم الإجابة عن السؤال الذي تركتُ له مرقد آخرتي، من يعانون تلاحُق المشكلات بين المريدين وعامة الناس. ربما أتجه إلى الخلفاء، ترامَى من أفعالهم ما يحفزني إلى التقصِّي والسؤال. استأذنت السلف من الأولياء، فأَقصُر زيارتي على الخلفاء الذين أوكلوا لهم مشيخة الطرق، عدا بقية أولياء الله الذين حملوا فكر الشاذلية، وطقوسها، وأعلامها، وبيارقها.

لا أخفي اعتزازي بمن ينسبون أنفسهم إلى الشاذلية، تتعدد الفرق التي يتبعونها، لكنها تسلك طريق الشاذلية، في سعيها للوصول إلى الكشف.

كثرة أولياء الله في بحري تشي بكثرة المظلومين وطالبي الشفاعة والنَّصَفة والمدد. بحري مجمع أولياء الله، خواصِّي ونوابغ تلامذتي. أقربهم إلى نفسي المرسي أبو العباس. هو

وليٌّ عالي القدر والمكانة، الولي الحقيقي مشحون بالعلوم والمعارف، والحقائق له مشهورة، حتى إذا أُعطيَ العبارة كانت كالإذن من الله له في الكلام، مَن أذن له في التعبير تهيأت في مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته. ما من ولي لله كان، أو هو كائن، إلا وقد أظهر الله أبا العباس عليه. هو شمس انتشر نورها في الآفاق؛ الصدق والقنوت والتوبة والخشوع والسياحة واليقين والإخلاص والإحسان والتقوى والتوكل. أَمَّنت على وصف ابن عطاء الله بأنه اغترف من فيض بحر إلهي، طلب العلم الله عز وجل، سُررت — لتدينه وتصوفه — بتزويجه ابنتي. النسب الجميل الذي تكرر — بما أضاف إلى مسرتي — في زواج ياقوت العرش، خادم المرسي وصفيِّه، من مهجة بنة أبي العباس.

قلت له يومًا: يا أبا العباس، ما صَحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت.

في حجتي الأخيرة، همس الخادم بالسؤال لما طلبت منه أن يستصحب معه فأسًا وقفة وخيوطًا، وما يُجهَّز به الميت.

قلت: عند حميثرا الخبر اليقين.

لما شعرت بدنوِّ الأجل، أوصيته بدفني حيث دُفنت في وادي حميثرا. أعدت الوصية على المريدين: إذا أنا مت، فعليكم بأبي العباس المرسي؛ فإنه الخليفة من بعدي.

ورنوت إلى المريدين بنظرةٍ مُحبة: لو أراد الله أن يخلِّد أولياءه في الدنيا لَفعل، لكنه يشفق على شوقهم للقائه.

بدأت رحلتي بطلب من الخضر، لا أعبأ بشيء إلا أن أفعل ما يجب أن أفعله، ذلك ما اعتزمته قبل أن أغادر مرقدي.

الخضر هو القطب الأكبر، يحكم — من ديوانه الباطني — بما يرى أنه الصواب، لا يناصر إلا من يناصر الحق. هو الذي علَّمه الله سبحانه من لدنه علمًا، يفعل في حياته — بصورة طبيعية — كل ما يُنسب إلى الأولياء من كرامات؛ الطيران في الجو، السير على الماء، الانتقال بالروح، رؤية الغيب، مخاطبة الحيوان والطير والحشرات والهوام، حتى النباتات تنصت إلى أوامره، وتلبِّيها. له الحول في أربعة أشياء؛ إغاثة الملهوف، إرشاد الضال، بسط سجادة شيخ الصوفية، وإعانته على رد مُناوئي الطرق، تولية الغوث حين وفاته.

الغوث — كما تعلم — له كلمة نافذة على الأقطاب، وللأقطاب كلمتهم على الأبدال، والأبدال على الأوتاد. يموت الغوث، فيوليِّ الخضر من يحل محله. الخضر موجود في امتداد الأزمنة والأمكنة.

سأله نبي الله موسى: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟

قال الخضر: بتركي المعاصي كلها.

كيف لا أنصت إلى إرشاداته ونصائحه وتوجيهاته؟

فاعلم أن الخضر لا يظهر إلا للأقطاب من أولياء الله.

آخر لقاءاتنا في صحراء عيذاب، يضع ثوبه الأخضر على قامته الفارعة. تبادلنا السلام والتحية.

قال لي مودعًا: يا أبا الحسن، صحبك اللطف الجميل، وكان لك صاحبًا في المُقام والرحيل.

الهواتف تملأ نفسي، استبعدت الحلم، أن يكون ما رأيته قد جرى فيما يرى النائم، التفصيلات الدقيقة والمنمنمات تهملها النظرة الكلية، أو العابرة. أدركت أنه ينبغي أن أفعل شيئًا، لا أعرف صورته، ولا متى يبدأ، ولا أين ينتهي.

أزمعت أن أستبدل امتطاء صهوة الجواد، بالسير على القدمين. ثم بدا لي السير منفردًا فكرةً جيدة. يسهل التنقل بين الأمكنة؛ صحن جامع، مئذنة، ضريح مسدود، صفحة موج، تعلو، أو تضيق، أو يصعب دخولها إلا لمن خصَّهم الله برحمته.

من المؤلم أن يقصدك الناس، يتصورون استطاعتك أن تفعل شيئًا من أجلهم، لكنك لا تفعل شيئًا، لا تستطيع أن تفعل شيئًا. الدعوات، والتيقن من قدرة الله، هي ما يملكه العبد الخاضع لإرادة خالقه.

ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق.

ذلك شأن أهل الطريق.

٢

ساحل رأس التين أول رؤيتي للإسكندرية، أحزنني — عند القدوم — ما كنت أَلِفته من رؤية المئذنة العالية لجامع المرسي، حجبَتها البنايات العالية، فحدست موضعها.

هدير الموج، وتخلل الجو رائحة البحر، اختلاط الملح واليود والأعشاب والرطوبة. النوارس تحلِّق ما بين الشاطئ وجزيرة الأنفوشي. طريق الكورنيش خالٍ، ساكن، إلا من سيارات تمرق في الاتجاهين. تغطت السماء بالسحب، لا فواصل من الزرقة، وإنما رمادية يختنق وراءها ضوء شاحب.

لم تكن الصورة كما أراها الآن. الفاصل الحجري بين البحر ورماله، وبين الطريق — اسمه الآن شارع قصر رأس التين — والبيوت في الضفة المقابلة. كانت الأكواخ والعشش متناثرة في بحر الرمال، حتى حصن «ألاطة» زال كما زالت بنايات قديمة، كثيرة. الحركة المصاحبة لقدوم الصباح؛ النوافذ تُفتح، لمبات الشوارع تُطفأ، باعة الصحف يرتبون بضائعهم، عربات الفول تلم حولها الرائحين إلى أعمالهم، والمقاهي مفتوحة على الخواء.

آخر زياراتي لقلعة قايتباي المطلَّة على ضريح ولي الله الأنفوشي. كان البحر يحيط بها من ثلاث جهات، لا بنايات، إنما أمواج من الرمال تختلط بأرض المقابر القديمة، في الجهة الغربية لجامعَي أبي العباس والبوصيري.

عرف الناس أن له قدم صدق عند الله تعالى. تردد على ضريحه أرباب الحوائج، يلتمسون شفاعته، فيقضيها الله لهم. تتزايد أعداد النسوة عقب صلاة الجمعة، يقبِّلن أعتاب الضريح، يتمرَّغن في ترابه، ينذرن الشموع والذبائح والثياب والأغطية. هاجسهن امتلاء الأرحام برقًى ودعوات، تتعالى الزغاريد لوفاء النذور، ويتناثر الحمص والملح.

ذاكرتي لا تخطئ.

ترامي الأمواج — قبل إنشاء الكورنيش الحجري — إلى داخل المدينة، إلى حيث يعيش الناس في هذه الأيام؛ الجوامع والزوايا والمدارس والحدائق والمقاهي والبنايات والشوارع المرصوفة.

صحبني — عند قدومي إلى الإسكندرية — نخبة من تلاميذي؛ أبو العباس المرسي، وأبو العزائم ماضي، ومحمد القرطبي، وأبو الحسن اليجائي، وأبو عبد الله اليجائي، وغيرهم.

أول نزولنا في عمود السواري، ثم مضينا إلى قلب المدينة.

همَّني أن أعود على بدء، قدومي إلى المدينة، تنقلي بين المساجد وأماكن العلم، ترددي على مجالس الزهاد والفقهاء والعلماء، مثابرتي على المشاركة في أمور دينهم ودنياهم، استقبالي في مجالس دروسي العلماء والزهاد وأهل التقوى.

عشت في المدينة لما كانت عامرة بالجوامع والمساجد والزوايا، والكنائس والأديرة، والتكايا والخانقاوات، والمدارس ومعاهد العلم، والقلاع والقصور، والأربطة وخزائن السلاح والمتاجر، والمزروعات والبساتين والقنوات المائية، وصرف مجاري المياه في الخلاء إلى ما وراء العمران، أو بالقرب من البحر، والبحر في حدَّيه الشرقي والغربي. حتى جزيرة فاروس، جزيرة رأس التين، أتاح لي ناس بحري زيارتها. لم تكن الجزيرة قد اتصلت بالمدينة بعد، عبرت إليها، وعدت، بالمشي فوق صخور وصلت بينها وبين الساحل.

اعتدت السير في شوارع الإسكندرية، يحيط بي العلماء والفقهاء والزهاد وعوام الناس، ينشرون الأعلام على رأسي، ويضربون الكاسات بين يديَّ.

قصد إلى مجلسي في جامع العطارين، الجامع الجيوشي، الخاص والعام من أهل المدينة، يتقدمهم تلامذتي أبو العباس المرسي وأبو القاسم القباري وابن المنير ومكين الدين الأسمر وأمين الدين جبريل.

تحدد معظم تنقلي بين البيت الذي جعلته لسكناي في كوم الدماس، كوم الدكة الحالي، والجامع في العطارين، حتى صحبني أبو العباس وعديد التلاميذ إلى بحري، بعد أن استخلفت المرسي في حفل حضره المئات من أتباع الشاذلية.

أودعت مجالس البيت وجامع العطارين موضعًا غاليًا في نفسي، حضرها الخواص وعامة أهل المدينة، حدثتهم في التفسير، وتصنيف الكتاب، وشرح ما غمض عن المريدين. حرصت أن أفيد مما يسر لي الله من علوم. جمعت بين العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة، بما ينتهي إلى المعرفة الحقيقية لخالق الأكوان. يسألونني عن مسألة قد لا يكون لها عندي جواب، أرى الجواب — بحول الله — في الدواة والحصير والحائط. عظتي لجلسائي أن

يرجعوا عن منازعة الله؛ ليصيروا موحدين، والعمل بأركان الشرع كتحقق للسنة، وبلوغ التكامل بالجمع بينهما، أن يفطنوا إلى ثقل الذكر على ألسنتهم، وكثرة اللغو في مقالهم، وانبساط الجوارح في شهواتهم، وسد باب الفكرة في مصالحهم. ذلك — إن حدث — من عظيم الأوزار، أو كمون إرادة النفاق في القلب، فليس لهم إلا الطريق والإصلاح والاعتصام بالله، والإخلاص في دين الله تعالى.

حرمتني فضيلة التواضع أن أسعد بالقول إنه ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلس العبد الفقير. حتى قول ابن عطاء الله السكندري إني كنت صاحب سياحات كثيرة، ومنازلات جليلة، وإني جئت في طريق الصوفية بالعجب العجاب، وشرحت من علم الحقيقة الأطناب، ووسَّعت للسالكين الركاب، حتى هذا القول امتصته فضيلة التواضع، فلم ينعكس على حياتي بما يؤثر فيها.

ألفت الإسكندرية؛ مساجدها وأحياءها وشوارعها وبناياتها وأسواقها، منذ بداية رحلاتي إلى البيت الحرام، والروضة الشريفة. خلَّفت فيها علماء وتلاميذ، أعتز بصداقاتهم؛ المرسي وياقوت العرش والقباري وابن المنير ومكين الدين الأسمر من تلاميذ الشاذلي، إلى جانب ابن عطاء الله وابن أبي الحوافز وشرف الدين البوقي وغيرهم. إن لم أكن ألفت الكتب، فإن هؤلاء الأصدقاء هم كتبي.

صار لي في الإسكندرية — مثلما حدث في كل مدينة دخلتها، أو أقمت بها — علماء جلست إليهم، وأفدت من أقوالهم وأفعالهم، وتلاميذ أنصتوا إلى عظاتي، وسلكوا بها طريق التصوف.

٣

بداية حياة أعتز بها منذ قدومي إلى مصر، حتى نهاية صلتي بالدنيا الزائلة في حميثرا. أفق البحر يلغي الزمان والمكان، هو هو على حاله منذ الأزل، التغير في الأرض، شغلها العمران بما بدَّل ظاهرها.

الشيخ محمود البوريني.

وقفته في مواجهة البحر لم تغيب صورته التي أذكرها. عقد يديه وراء ظهره، وتطلع — بعين متأملة — إلى امتداد الأفق.

القامة القصيرة، النحيلة، الوجه الباسم ذو الملامح المطمئنة، والعينان السوداوان، العميقتان، تطل منهما نظرة هادئة. أحفظ نبرة صوته، وحركات يديه أثناء الكلام.

تابعت إمامته في جامع البوصيري، ثم في قصر رأس التين، وانتقاله إمامًا في الباخرة «المحروسة»، زمن الخديو عباس حلمي الثاني.

هل يستعيد أيامًا خالية؟

رواياته المتكررة لسيرة رسول الله، وسير الصالحين من آل البيت والصحابة والتابعين؟ دعوته إلى التمسك بأصول الإسلام، بالقرآن والسنة والحديث؟ خطبه المدافعة عن الخديو الذي عزله الإنجليز؟

آخر علاقة الشيخ بالإمامة، وبالعيش في الديار المصرية، لما استعاد الشيخ قطب الزهار — إمام مسجد ياقوت العرش — قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

أفاض الإمام في شرح الآية. حذَّر من مخالفة السلطان، أو التمرد عليه، المؤمن العاقل يقدِّر عواقب مخالفة الرعية لأوامر الراعي.

علا صوت الشيخ البوريني، قبل أن يتهيأ الإمام للنزول من المنبر: لا طاعة في معصية!

ولوَّح بقبضته، كأنه يؤكد ما يقوله: الحاكم الظالم لا بد من زواله، وإن تمسك بالحكم يجب قتاله!

قال الإمام: من يعارض حاكمًا فهو يُحرَم بركة أهل زمانه، ويخالف أمر الله!

قال البوريني: أحب مولانا ابن عربي، لكنني أتحفظ على قوله إن الله إذا سلط ظالمًا على قوم، فيجب ألا يقاوموه لأنه عقاب من الله.

– قول طيب، فالحاكم يملك ما لا نملك، وهو الذي يمنح ويمنع.

وتفحَّص المصلين بعينيه، كأنه يرى أثر كلماته: لو أن الحاكم يعصي الله، فمن يقوى على تنحيته؟

هتف البوريني في صوت كالصراخ: كلنا ... أنت ونحن.

أخذ على الإمام غلبة التصنع في عظاته؛ فهو يتعمد تقطيع الكلمات، ورفع الصوت، وخفوته، والتعبير بهزات الرأس، وتلويح اليدين، وتبيُّن تأثير العظات في أعين المريدين.

عاب ما غلب على كلماته من الحشو والغموض والتعقيد. يتكلم ويتكلم، يعلو صوته مستطردًا، يضيف إلى الحيرة في أعين المريدين، لا يعرف المريدون ماذا يريد، ولا المعنى الذي يقصده. يميل إلى كثرة الاقتباس والتضمين والتورية والمجاز، مع الإسراف في الجناس، وغيرها من المحسِّنات اللفظية. تشي كلماته المنفعلة بأنه يؤكد المعاني لنفسه أكثر مما يؤكدها للحضور، ولعله لم يكن مقتنعًا بما يرويه. آلمهم منه كثرة البكاء، والزفير والشهيق، والغشية، والصراخ والصياح، والتلفظ بكلمات الشكر. قادهم في طريق ضبابية، وفارقوه قبل أن يبلغوا نهايتها.

عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، برحيله لم تعد الحلقات موصولة: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. آفة الرئاسة الفخر. أصلح نفسك، يصلح لك الناس. أنتم في حاجة إلى إمام فعَّال، أحوج منكم إلى إمام قوَّال. الأمر بالمعروف أفضل أعمال الخلق. من لم يرحم الناس، منعه الله رحمته. من تجبَّر على من دونه كُسر. تَذكُر أن أهالي خراسان قد ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، والسلام. رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك. جمال السياسة العدلُ في الإمارة، والعفو مع القدرة. لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة، لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة. أيها الناس، إني قد وُليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأشدكم استصلاحًا بما ينوب عن مهام أموركم، ما توليت ذلك منكم. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت

الله فلا طاعة لي عليكم، فإن رأيتم فيَّ اعوجاجًا فقوِّموني. فاعلموا أيها الناس أن أكيس الكيس التقى، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. يا معشر الناس، إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، إن الله فرض فرائض، وسن سننًا، من أخذ بها لَحِق، ومن تركها مُحقَ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس؛ يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا من العدل على ما لا نهتدي إليه، ويكون عونًا لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا، وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحدًا، ومن يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا. أصابت امرأة، وأخطأ عمر. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ لو أن الناس كلما استصعبوا أمرًا تركوه، ما قام للناس دنيا ولا دين. إذا فاتك خير فأدركه، وإن أدركك فاسبقه. لا تقيدوا مسجونًا في سجنه؛ لأن ذلك يمنعه من تمام الصلاة. أنتم إلى إمام فعَّال، أحوج منكم إلى إمام قوَّال. أشقى الولاة من شقيت به رعيته. لا يكن أهلك وذوو ودك أشقى الناس بك. اضرب ابن الأكرمين. من خاف اللهَ أخاف اللهُ منه كل شيء، ومن لم يخف اللهَ، خاف من كل شيء. والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. لا ينجو من الله سبحانه من لا ينجو الناس من شرِّه. يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن. قليل الحق يدفع كثير الباطل، كما أن القليل من النار يحرق كثير الحطب. لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني. همُّ الدنيا ظلمة في القلب، وهمُّ الآخرة نور في القلب. اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبَّ لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأَحسِن كما تحب أن يُحسَن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقُل ما لا تعلم، وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يُقال لك، ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرًّا. اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

غاب عدل الخلفاء، وأساء إليه النزوع لترف الحياة الدنيا. لو أن الأسماك ابتعدت عن المسار السهل ما وقعت في شباك الصيادين.

كوَّن جماعة، سماها «الحلقة السادسة»، شاغلها تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وطلب الخليفة السادس، لا تؤطر اجتهاداتها المذاهب، ولا الأهواء الشخصية. هي بالفعل جماعية التفكير والتصرفات، نظامها شورى. لا يرقى شيخها إلى مرتبة الخلافة الراشدية — لها التوقير — إنما يمثل الجماعة، يتحدث عنها، يرجع إليها في كل القضايا والمشكلات قبل أن يتخذ — باسمها — قراره.

لم ينتقل من داره في حارة الشاروني إلى البيت الذي تبرع به حامد الجزايرلي عضو الجماعة، ثلاثة طوابق تطل على ميدان الأئمة.

هلل البوريني بالترحيب: هل قدمتم بالهمة؟

قلت مداعبًا: ركبت عربة من زمنكم!

رأى نهاية زمن العربات ذات الخيول الأصيلة، المطهَّمة، يهرول أمامها سائسان، يرتديان ثيابًا ملونة، فضفاضة، ذات أكمام واسعة، ومزينة بخيوط الذهب. في يد كلٍّ منهما عصًا طويلة، يسبق التلويح بها هتاف في المارة: وسع!

حلت السيارات بدلًا من العربات ذات الجياد، حتى اختفت. عرف طريق الكورنيش — بعد إنشائه — عربات البنز، في النزهات المنفردة، وسباق المناسبات، ثم قلل الزحام من سيرها.

ذكَّرته بما كان.

عُرف عنه السعي إلى إغاثة الملهوف عند الحكام. عَرف عنه الحاكم، ومن بيده زمام الأمور، عزوفَه عن التردد على مجالسهم، أو التداخل معهم، وأنه لا يطلب لنفسه ولا لسواه صلة تيسِّر الحياة. عانى الدين — في فتاوى العلماء المحسوبين عليه — أضعاف ما عاناه على أيدي الكفار.

تعددت زيارات والي المدينة إلى بيته في ميدان الأئمة. خاطب وده أهداه أموالًا وألبِسة. قبل أن يغيب موكب الوالي في انحناءة الطريق، وضع الشيخ البوريني ما أهداه له الوالي على باب بيته، ودعا الناس إلى أخذها، كلٌّ حسب احتياجه، فلا يخضع لإغواء نفسه. هو لم يرفض الحاكم لأنه راعٍ مسئول عن رعيته، لم يسعَ إلى الانتقاص من قدره ولا مكانته، إنما لَيل الحاكم عن العدل وقبول النصيحة.

ظلت لهجة البوريني على حالها، لم تتبدل.

قال: لم أخَف السلطان قدر خوفي من الحريصين على إرضائه.

أضاف كمن يحدث نفسه: لا أتصور أن عالمًا حقيقيًّا يدافع عن ولي الأمر.

– الحرية من أخلاق المتصوفة.

وهو يخفض نظره: هذا ما تعلمناه من أقطابنا.

ما أشار إليه البوريني كان هو الباعث لهجرة موطني.

بدأت رحلتي — في سن الشباب — إلى بلدان الشرق، كنت أطلب القطب الغوث. القطب الغوث — كما تعلم — هو قطب الأقطاب عند الصوفية.

تركت قريتي «عمارة» التابعة لمدينة فاس بالمغرب. كانت رحلتي إلى الشرق سعيًا لتجدد التصور بأن ما أريده من حرية هو في المعرفة الروحية، والقول بما يصدر عن الفهم، وأن التصوف ليس بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا ببقبقة الصناعة، وإنما بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية.

وجدت ما سعيت إليه في أستاذي عبد السلام بن مشيش، علَّمني، حثَّني على التطهر من حب الدنيا، ومحو الصفات الرديئة، وتقديم المجاهدة، والإقبال، بكل الهمة، على الله سبحانه، يسَّر لي — بنصحه وتوجيهه — ما كان غائب الملامح، أو ضبابيًّا.

بطَّنت تساؤلي بالود: أصبحت سالكًا؟

– بحري حي صيادين.

استطردت بالود: والصوفية؟

– ليست كل الفرق من أبناء الحي.

– أضرحة الأولياء ومقاماتهم ظاهرة في بحري.

– نحن ضد الأضرحة، لكننا لا نهدمها.

أومأت بابتسامة ليواصل الكلام.

– مولانا أحمد الرفاعي حذَّر من أن يجعل الناس — بعد رحيله — من قبره صنمًا.

قلت في نبرة تأكيد: هدم الأضرحة لن يسهِّل تقدم البلاد.

وربتُّ كتفه بود: احترام الناس للأضرحة والمقامات هو احترام للأولياء، وليس عبادة لهم!

٤

ألغيتُ — بعين الخيال — ما حل بالميدان من تغيرات، أتصوره في تعاقب أحواله، خاليًا من كل ما طرأ عليه.

حرصت على التواصل مع تعاقب المريدين، التابعين للأحمدية الشاذلية، لم يشغلني الحضور الجسدي، إنما شغلني إقامة الطريقة للحضرات، وتلاوة القرآن، وقراءة الأوراد والأحزاب، والتسابيح والابتهالات، والإنشاد وحلقات الذكر.

تعدَّت شهرة الطريقة حدود الإسكندرية إلى أقاليم مصر، امتدت إلى الشام والحجاز وبلاد المغرب وغيرها من أقطار العالم الإسلامي.

غادرت المقام، انطلقت من الوادي المسمى باسمي، بين جبلَي حميثرا والمظلوم، خلَّفت سلاسل الجبال القصيرة إلى المدى في انتهائه إلى بحري. أزمعت أن أقصد الخواص من أولياء الحي، ومن يقاربهم في المكانة. أفيد من قواهم الروحية وأفعالهم الخيِّرة، علاقاتهم بكائنات لا تُرى، يُخضعونها لتنفيذ مطالبهم، صدَقوا الله فصدقهم الله، أودع الله قلوبهم يقينًا، صاروا به خزائن الله في أرضه.

الأولياء الثلاثمائة، لا يزيدون ولا ينقصون في توالي الأزمنة، من يأخذه الموت، يحل مكانه من هو في مثل علمه، النجباء السبعون، والأوتاد الأربعون، والنقباء العشرة، والعرفاء السبعة، والمختارون الثلاثة، أحدهم القطب الغوث. إن مات الغوث نُقل من الثلاثة — بأمر مولانا الخضر — واحد فصار الغوث، ونقل من السبعة إلى الثلاثة، ومن العشرة إلى السبعة، ومن الأربعين إلى العشرة، ومن السبعين إلى الأربعين، ومن الثلاثمائة إلى السبعين، ومن سائر خلق الله إلى الثلاثمائة. يتواصل الانتقال إلى يوم الحشر العظيم؛ حيث ينال كل امرئ جزاء صلاحه وتقواه وخيره ومعروفه، وما فعلت جوارحه من الخطايا والآثام.

الطرق كثيرة، للسُّنة طرقها، وللشيعة طرقها، طريقتنا لا تحيد عن طرق السنة. الصوفية هي علم القلوب، علم الأسرار، علم المعارف، علم الباطن، علم الأحوال والمقامات، علم السلوك، علم الطريق، علم المكاشفة. الصوفي ينصر السنة، وينكر البدعة، ويمتثل لأوامر الله ونواهيه. يعرف أن السماء تراقبه، تحاسبه على أفعاله.

كما تعلم، فإن عدد الفرق الصوفية يقارب الثمانين طريقة، غالبيتها متفرعة — والحمد لله — من الطريقة الشاذلية، قوامها خمسة أصول؛ تقوى الله في السر والعلانية، اتباع السنة المحمدية في الأقوال والأفعال، الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، الرضا عن الله في القليل والكثير، الرجوع إلى الله في السراء والضراء.

تعلمَ من الشاذلية وانبثق عنها: العزمية، البكرية، السلامية، الخواطرية، الجوهرية، الوفائية، الحامدية، الفيضية، الهاشمية، السكائية، العفيفية، العروسية، الشابية، الجزولية، المحمدية الشاذلية، وغيرها من الفرق. تعدد الشيوخ، وانقسمت الفرق إلى أسماء كثيرة. وجدَت الطريقة امتدادات لها في فروع الجازولية والدرقاوية والناصرية والعيسوية والصداقية والزروقية والحمادية والخضرية والتابعية وغيرها.

عدا الشطط والغلواء، فإن الحرص على القرب من الله مما يُحسب للصوفي. يترك اللهو والباطل، ينقطع إلى الزهد، والصوم والطهارة والسكوت، وترديد الأذكار والأحزاب والأوراد والابتهالات والأدعية، ونفي الخواطر، ينفي ما سوى الله عن قلبه، لا إله إلا الله محمد رسول الله في البدء والمنتهى، يسعى لاستدراك ما فات، يتهيأ لاستقبال اللوائح والأسرار، التجليات والمعارف الإلهية.

أولياء الله — في أرض مصر — يزيدون عن الأربعين، اتخذوا طرقًا ومسالك وأضرحة ومقامات من الإسكندرية إلى جبل الأولياء. لمناقبهم تأثيرات يصعب إغفالها، ولا إنكارها، في حياة الناس.

أول ما أعتز به بداية سلالتي في السيدة فاطمة الزهراء، ثم في الحلقات الطاهرة، الشريفة، السيدة زينب، الشهيد الحسين، زين العابدين، وإلى السيدة رقية، والسيدة نفيسة، والسيدة فاطمة النبوية، وإلى سيدي الخضر، والمهدي المنتظر، وأولياء الله، يقضون بالرأي الصواب. لم يعد أمام الناس للخلاص من المعاناة سوى نفخ الصور، وانشقاق الأرض، وبعثرة القبور، والوقوف — يوم الحشر العظيم — بين يدَي الله، يُثيب كل امرئ بما فعل من خير، ويعاقبه جزاء ما جنَت يداه.

اخترقت طريقًا مختصرة في شوارع الأنفوشي والسيالة، شوارع ضيقة، ومتقاطعة، وحارات ترابية، ساخت في أرضها — بفعل الأمطار والأوساخ — الطوابق التحتية وأبواب البيوت.

أبطأت خطواتي أمام ضريح ولي الله كظمان.

قرأت الفاتحة، ثم اتجهت ناحية ميدان الأئمة، يلتقي عند الميدان الواسع شوارع كثيرة، تشكِّل امتداداتها ما يشبه الحي.

أشعة الشمس تنعكس على مئذنة جامع ولي الله أبي العباس وقبابه، وعلى أسطح البيوت المحيطة بالميدان.

تناهى الإنشاد من سرادق، أول الطريق إلى الميدان:

صلاة النبي
ترضي النبي،
ملحة ف عينك يا اللي
ما تصلي على النبي.

تمتمت بالصلاة على أشرف المخلوقات وأطهرها.

حين نفض ربيع الحلاق فوطته، وودع الرجل الخمسيني بالدعاء: حج مبرور بإذن الله؛ عرفت أن الرجل يعد نفسه لزيارة ضريح الشاذلي، حجة صغرى تلزم التقصير.

صوت أميزه، أفتقده إن غبت عن حميثرا، يصنعه قراءة القرآن والأحزاب والأوراد والابتهالات والإنشاد، وتلاغط المناقشات، والنداءات، والزحام.

قرأت الفاتحة للأولياء في مجمع أضرحتهم؛ محمد مسعود، محمد المنقعي، محمد الشريف المغربي، ابن وكيع، محمد أبو وردة، محمد بركة، محمد غريب اليمني، محمد الغريب، يوسف الجعراني، محمد الطرودي، محمد الحلواني، محمد إجابة، محمد صلاح الدين. صاروا — منذ نُقل رفاتهم إليه — قريبين من أقطاب الشاذلية، زادوا من أريج الروحية في الميدان وما حوله، يلجأ إليهم الناس للقضاء والمشورة، يتوسلون بولايتهم في قضاء الحاجات، وحل مشكلاتهم، وما يعانون.

اختنق الميدان بالزحام، كأن أهل الإسكندرية تجمعوا فيه.

أعرف أنه زحام الليلة الكبيرة لمولد المرسي أبي العباس، اليوم الختامي لاحتفال الناس بميلاد سلطان الإسكندرية. تقاطروا من بحري والأحياء الأخرى، أقبلَت وفود من خارج

الإسكندرية، يترنمون بالإنشاد والتراتيل والتسابيح والأدعية. نداء المريدين: يا أبو العباس يا مرسي، أعادني إلى نداء ناس حميثرا: شاذلي يا أبو الحسن.

على الأرصفة، تناثر المريدون والأحباب والمحاسيب والدراويش والشحاذون، وطالبو المدد والتبرك والشفاعة وتيسير العسير، وأداء النذور، وباعة المصاحف والكتب والأوراد والأحزاب والأدعية، والبخور والطيب والعطور والأعشاب، والتمر وعسل النحل، والمسواك والسبح وسجاجيد الصلاة.

تناهى من صحن الجامع إنشادُ الذكر وأوراده.

الجامع يمتلئ بالمصلين، من لا يجدون مكانًا في الداخل يفترشون الحُصر في الميدان والشوارع الجانبية. تناثرت لصق جدران الجامع، دواليب صغيرة صُفَّت بداخلها كتب ومجلدات. التمعت أشعة الشمس تتخلل زجاج النوافذ الملونة، في دائرة القبة العالية.

ازدحم المريدون حول المقام، يحيط به سور من النحاس اللامع، يكسوه غطاء من الحرير الأخضر، فوقه الشموع ومناقد البخور، في المنتصف تمامًا، صينية ممتلئة بالحناء، غُرست فيها دائرة من الشموع المضاءة.

يقصدونه للتبرك والدعاء، وتقديم النذور، وطلب المدد والعون، يلفُّهم اليقين أن ولي الله يقف بجانب قاصديه، وطالبي مدده وشفاعته.

أخليت لبسمة الإشفاق سبيلها إلى شفتيَّ.

المنشدة سكينة الحسامدية.

رأيتها — قبل سنوات — في سرادق أول الطريق إلى الموازيني، تنشد قصائد ابن الفارض وذي النون والسهروردي وابن عربي والجيلي وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومي والشيرازي وغيرهم، على ألحان فرقتها، أو على نغمات الذكر. السماع — كما تعلم — جائز لإنشاد القصائد بالألحان الطيبة، والنغم المستلَذة.

حين علا الدف، يرافق مديحها، وسَّطت الهواء مقاطعة: لا حاجة للمديح بالموسيقى.

– هذا دف.

– الكلمات تكفي.

بدأت بالمحاكاة، وإعادة ما يردده المنشدون والمداحون في سرادقات الموالد والمناسبات الدينية. شاركت في الإنشاد بحضرات الطرق الصوفية، أول اختياراتها حضرات الطريقة الأحمدية الشاذلية، وأورادها، وأذكارها. استحضرت — في ليالٍ تالية — سير الخلفاء الأربعة والصحابة والتابعين.

حفظت الكثير من سير الأنبياء، وحكايات الأولياء، والقصائد المغناة، والمدائح، والابتهالات. أجادت الوصل والوقف في إنشادها، وإن قصَرَت أداءها على الترتيل والتسبيح والتهليل، وعلى مدح الرسول، والمعاني الروحية، وأحوال الأرواح والقلوب. تطايرت في كلماتها معاني الوجد والشوق والحنين.

نوَّعَت — بتقضِّي الأيام — في أدائها، أجادت فهم طبيعة الجمهور الذي يتجه إليه إنشادها. التعرف إلى رغبات المستمعين، وتغير الاستجابات. تنتقل من مقام موسيقي إلى مقام موسيقي آخر، دون أن تبدِّل الإيقاع، ولا طريقة الأداء. ربما أضافت كلمات توافق المناسبة، تُماهي استجابات الجمهور، ما تطلبه مشاعره؛ اسم الولي الذي تنشد في ساحاته، ما تعرفه من مكاشفاته وبركاته، ما أسداه إلى الناس من غوث.

المديح يحتاج حلقة ذكر، يتوسطها رجل، يستغني عن الآلات الموسيقية، أو يكتفي بالقليل؛ دف، أو نقرزان، أو رق. الإنشاد خيمة من المرددين والآلات الموسيقية وتطوحات الذاكرين.

عرفت الحسامدية — فيما بعد — أن المادح أبا المعاطي الدمياطي أضاف العود والكمان والكولا إلى الآلات المصاحبة، التقته في صحن أبي العباس. ردت سلامه، ولم تشر إلى إهمال النصح.

ما تنشده ببركة المرسي، فهي تقصر اقترابها المكاني من ولي الله. لا تغادر الجامع، إلا للإنشاد في الموالد والمناسبات.

فاعلم أن الحب الصامت — في يقين المتصوفة — هو الحب الأعظم، يتعذر التعبير عنه بالكلمات.

صار أعز الأولياء إلى نفسها.

وجدت في عظات الشيخ محسن الطويل من فوق منبر جامعه ما يدفعها إلى الإنصات والمتابعة، رددت كلماته، نقلًا عن السلطان: «إلهي! معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية، ففي أيهما أخافك؟ وفي أيهما أرجوك؟ إن قلت بالمعصية، قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفًا، وإن قلت بالطاعة، قابلتني بعد ذلك فلم تدع لي رجاء. فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟»

ملكَت عليها الكلمات أقطار روحها. أدركت أنها انتقلت من عالم الأرض إلى عالم السماء، تمازجت العظات ببركة المرسي، السيرة العطرة والموالد والأذكار والخلوة والكرامات. تبدَّلَت طريقة إنشادها، لم تعد تقتصر على ما يردده كل المنشدين، لا تخترع، ولا تفتش في القرارات عما يطرب، تتجاوز رتابة التكرار والإيقاع بتبديل الكلمات والألحان،

تضيف، تحذف، تنوِّع النغم ومناطق الصوت، تنتقل من مكان إلى آخر، فيغيب التوقع، تعيد التشكيل والصياغة بما يرضي استجابة المتلقين. صارت تؤدي بقدر توصيل اللحن والكلمات، ومدى التأثير الوقتي على الحضور. أنشدت من كلمات ابن الفارض وابن عربي.

زاد تعلقها بولي الله، وهيامها فيه، تجد من حضور القلب أمام مقامه، ما لا تجده في سرادقات الإنشاد والحضرات ومجالس الذكر. أزمعت ملازمته للالتماس من بركته، وتدارك ما فاتها من تقصير في عبادة الله تعالى.

زاحمت الطائفات حول المقام، واللائذات بمكاشفات أبي العباس، يتنفسن روائح البخور والصندل والعنبر والمسك وعرق الأجساد والشمع المذاب، يجذبن كسوة المقام، يمسحن بها الوجوه، تهمس الشفاه بما يعانين، يطلبن الشفاعة والنَّصَفة والمدد، يهمسن بالأمل في إنجاب الذكور. حتى الزغاريد يتصورنها لإبعاد الأرواح الشريرة. أتاحت لنفسها موضعًا لصق المقام، تكوم طرف الغطاء الأخضر في يدها، تدنيه من فمها، وتقبِّله.

لم تعد — من يومها — تبدِّل جلستها. يفسح لها النسوة فرجة — عقب عودتها من السعي — حتى تطمئن إلى استنادها على الأعمدة المعدنية.

لو أنها عاشت في زمن ولي الله، لتمنَّت أن تكون زوجته، تَقصُر حياتها على خدمته، تطهو طعامه، تغسل ثيابه، ترفوها، تكويها، تبذل من نفسها ما يصرفه إلى علمه ومريديه.

تكرر وقوفها في الظلمة، مستترة بالعمود الجرانيتي الضخم، قبالة الباب المُفضي إلى السيالة. أملها أن يصعد السلطان إلى المقام، تحدس وجوده بين قاصديه للبوح، أو للنصفة والغوث، أو طلب الشفاعة لدى أولي الأمر.

ذات ضحًى، غافلَت الخادم، وهبطت السلالم إلى أضرحة المرسي وابنَيه. المقام في زاوية الصحن، الضريح — إلى جواره ضريحا الابنين — في الطابق الأرضي.

لما اقتعدت أمام الضريح، ونادته، كانت قد بادرته — من قبل — بأسئلة، وأظهرت في اتصال الكلام أنها اطمأنت إليه، يعطيها سمعه، فتحكي، وتعلق، وتبدي الملاحظات. لجأت إليه لتيقنها أنه لن يسيء فهمها، أو يفسر ما تطلبه تفسيرًا خاطئًا.

شكَت له إعراضه عنها، وتأبِّيَه عليها.

تناهى إلى سمعها ما يشبه الهاتف: أتصور الدرويش الذي لاحظ أن لزوم المرأة مجلسه لحبٍّ تملَّكها من شخصه، وليس اتباعًا لعظاته ونصائحه. أراد تنفير المرأة منه، أزال حاجبيه ونصف شاربه، ولطخ بالسواد أسنانه.

بحلقت عيناها بالدهشة: لماذا يشوِّه المرء خلقة الله؟!

– حتى يفرغ حياته للعبادة.

قالت: لن تعطلك عن العبادة من وجدَت في علم المخلوق ما يقرِّبها من الخالق.

– أعلم، همَّني أن أرفض المغالاة.

تنقلت بين الجوامع والزوايا والسرادقات وساحات الإنشاد الديني وأماكن العلم، تقرأ فيها القرآن، وتذكرة سيرة الرسول منذ مولده إلى وفاته، وما بينهما من كرامات ومعجزات، وتقرأ أوراد الصوفية. أتقنت التجويد والترتيل والنغم، وما تيسر من القراءات السبع. رفضت تسمية «الصييت»، هي مريدة للسلطان، تبعت الطريقة الحامدية الشاذلية، حياتها في الإنشاد والمديح والابتهالات والتواشيح، ورواية سير الرسول والصحابة والتابعين.

اقتصر أداؤها على الناي، أو السلامية والربابة، والصنوج والأبواق، والنقرزان الذي قد يحل الدف بدلًا منه. تجيد الأوزان والإيقاعات والمقامات والقفلات الموسيقية. إذا أخفقت في استدعاء بعض الكلمات، حاولت تعويضها بالدندنة، وتعبيرات اليدين، وملامح الوجه. ربما نغَّمت بصوتها، فلا تشاركها أصوات البطانة والفرقة المصاحبة، وإن ظلت كلماتها من مقام الراست، تعبر عن معاني الشجن والحب. استغنت عن الخمريات الصوفية، الكلمات ذات المعاني المحيرة؛ المشاهدة، المعاينة، الجمال، الحب، الغرام، الصبابة، الشوق، الوجد، السماع، الخمر، السكر، القرب، البعد، الصد، الوصال، العناق. تعرف أنها تجليات وأحوال ومقامات، لكن خطأ الفهم ربما يسيء إلى معانيها. لفظة المحبة اختيار رابعة العدوية، المنبثق من علم وافر، هي لا تضمِّن اللفظة إنشادها، فلم تحصِّل ما حصَّلَته رابعة من القراءات، ودروس العلماء، والاستلهامات. حتى لغة السيم استغنت عنها، فهي لا تنشد إلا ما استقر في فهمها، ولا تلجأ إلى السيم، ولا المفردات الغامضة، أو المُلغِزة.

ظلت على عبادة الله بالصوم والصلاة والذكر والتسبيح والشكر والحمد، تنطوي على نفسها، لا تعلو جرأتها بالكلمات وتعبيرات الأيدي، إلا حين تثيرها كلمات مغازلة، أو مداعبة.

قبل أن تبلغ الأربعين، أنهت الست سكينة صلتها بالمديح والإنشاد، وإن ظلت على اطمئنانها لمناقب المرسي؛ تلزم مقامه، ترجو إشارة الرحلة إلى قريتها القريبة من سوهاج، تقضي فيها بقية عمرها.

لفتني استناد المرأة على أعمدة المقام، أسدلت الملاءة السوداء على جسمها، لا يبين إلا اختلاط نحيبها وكلماتها، وإن علا الصوت فبلغ معظم ما قالته سمعي.

أحزنني أن المرأة تطلب من الولي أن يتشفع لها عند الخالق الرحيم، فيأخذها — قبل زوجها — إلى رحابه، المرأة تزوجت على دينها، تخشى أن يموت زوجها المسلم، فلا تجد — عند فراق الدنيا — من يُعنَى بأمر دفنها.

قبل أن أتدبر حال المرأة، تزاحم نسوة — لعلهن قَدِمن صحبةً — فغابت عن نظري.

اعتدت ما رأيت؛ عبارات الغوث، وشد الأزر، ومنع الأذى، وجلب الخير، على أبواب الجوامع والمساجد والزوايا والمزارات، أمام المقامات والأضرحة، حين الخلوة إلى الذات؛ امرأة تشكو للولي ما تعانيه من زوجها، يضربها بقسوة، يخمشها، يعضها، يلكمها، ثم يبكي ويغسل قدميها بدمعه. رجل يهمس بتكرر دخوله على زوجته، فلا يقوى على المضاجعة، امرأة تعتذر — بقِلة الحيلة — لأنها لا تقدِّم ما اعتزمَته من نذر في موعده، رجل مُقعَد على كرسي تدفعه زوجه، تحرك الرجل في قعدته، دعا على ظالمه يعتريه بخلل العقل، فلا يثبت في أقواله ولا تصرفاته، ويسيء التصرف بما يزيل المكانة التي بلغها.

أدعو الله العليم بأحوال عباده، أو أهجس في الخاطر بما يحثُّ النفس على التبصر والمراجعة.

جاوزت المقام نحو السلم المُفضي إلى الأضرحة، تحت الأرض.

القِلة أَذِن لهم الخدم بالنزول إلى الأضرحة، يوقدون القناديل والشموع، يقبِّلون الأعتاب. المرسي أبو العباس هو من أرجو رأيه الصواب. أذكر وصف ابن عطاء الله له، بأنه يجمع بين علم الأسماء والحروف والدوائر. عُني بتسليك الفقهاء. قوله لتلميذه وصهره ياقوت العرش: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفًا من العوام، بل أن تسلك فقيهًا واحدًا في مائة عام. أرجع إليه فضل اعتبار الطريقة الشاذلية طريقة خامسة إلى جانب الطرق الأربعة الرئيسة. جعل لطريقته حضرات وموالد تنفرد بها، تختص بأورادها وأذكارها. خالف — بزهده — أسلوب القطب الأكبر، منذ بدأت — على عادة أهل المغرب — رحلتي إلى المشرق؛ لأداء فريضة الحج. لا أسأل، لا أناقش، لا أحاول حتى إيماءة المباعدة بين السير في طريق التصوف والورع والزهادة، وبين رفض التقشف، والاستمتاع بالحلال من الدنيا.

من حق الولي، مثلما هو حق آحاد الناس، ألا يهمل نصيبه من الحياة الدنيا، ولا يتشدد على نفسه في استملاك الطيبات من الرزق.

ما لم يحرِّمه الله، فهو حلال. أحل الله تعالى ما يسعد المرء، دون أن يغضب ربه، أو يؤذي الآخرين.

أرى العمل خير عبادة، هو تسبيح دائم باسم الله، أفرغ لساني للذكر، وقلبي للفكر، ويدي لمتابعة الأمر. اشتغلت — حتى أصدر الله أمره — بالزراعة وتربية الثيران. يحزنني الركون إلى البطالة، الارتزاق من سؤال الناس، بحُجة الزهد، والتفرغ للعبادة. لعلي كنت أتمنى أن يظل تلاميذي في أعمالهم، لا تأخذهم عنها الطريقة، ولا ما تتضمنه من عبادات. أرفض تصور التكية في المكان. العمل وسيلة الحياة داخل المجتمع الخالي من الأسوار.

التصوف في النفس، هي التي تدرك الصواب والخطأ فيما تنوي الأخذ به. كي نبذل الصدقات، ونؤدي الزكاة؛ فلا بد من الكسب الحلال. أُرجِع إلى الغلوِّ رفضَ البعض تناول الحلال، وإتيانه، بداعي الزهد والتقشف. قول الله سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني الإقبال على طيبات الحياة، حلالها، ليس في الطعام وحده، إنما فيما عداه من مشرب وملبس ومؤانسة غير مشوبة.

ثمة من يجد في توافر شروط المشيخة داخل الولي، أفضل من ارتداء الثوب القشيب، والعيشة الأبهة، وخلع ألقاب التدين والعلم، ما يحرص عليه شيخ الطريقة هو التواضع والمباسطة.

أرديتي — كما تعلم — من الحرير والصوف والوبر والكشمير، لكن القلب هو الذي يتصوف، وليس اللباس. أمتطي جوادًا أسود عليه سرج ثمين. أنفق وقتًا في تربيته، أطعمه بنفسي اللوز والبندق والفستق. لم أدرِّبه — كما تُدرَّب الجياد — على النزال والطعان بالسيف والسنان والترس، هو رفيقي في رحلات تنشد قلوب الأحبَّة. وكَّلتُ به سائسًا لخدمته، أدس قطع السكر في فمه، أطمئنُّ إلى سلامته، أتفحص حوافره حتى لا يواجه أثناء السير ما يؤذي، أمسِّد رأسه وعنقه وبطنه وعجزه، ينتقل إلى نفسي ما يرين عليه من هدوء وسكينة، تجري أصابعي على كثرة السبح التي أبدلها؛ الكهرمان والمرجان واليسر والفيروز والعاج وسن الفيل والزجاج والعود والصندل. ربما أهديت منها إلى النساك والزهاد، والذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

لكي نُبعث، فلا بد أن نموت، ولكي نمضي في رحلة الآخرة، فلا بد أن نعيش رحلة الدنيا. نصيحتي لكل من يطلب النصيحة: اعرف الله، وكن كيف شئت.

٥

رأيته واقفًا أمام الضريح في هيئة من يترقب زيارتي، إذا كنت قد فقدت البصر في سنِي حياتي الأخيرة، فإني أحمد الله على نعمة البصيرة في حياتي جميعًا.

السحنة لم تتبدل، والعباءة المسدلة على القفطان الشامي على حالها، منذ زارني — قبل أشهر — في حميثرا.

ملأت البسمة ملامحه، وبسط ذراعيه مهللًا، مددت يدي بالمصافحة، لكنه اجتذبني إلى صدره، وعانقني.

هو المرسي الذي أوصيته بدفني في حميثرا، وأوصيت مريديَّ أن يلجئوا إليه، فهو الخليفة من بعدي.

أحببته، كما أحببت ابن عطاء الله السكندري، تلميذاي اللذان أخلصا السير في الطريق، لا يجاوزان — في يقينهما — ما بالكتاب والسنة، طريق الصوفي أعمدة إنارتها هي الكتاب والحديث والسنة، وإن اختلف الشيخان في سلوكهما الصوفي. ابن عطاء الله واحد من أقطاب الصوفية الأربعة، المنتسبين إلى مصر؛ ذي النون، وعمر بن الفارض، وإبراهيم الدسوقي. ظل على إنكاره الصوفية، وأمْر أبي العباس، حتى التقيا، فنهل من علم المرسي، كلمه في الأنفاس التي أمر فاطر الأكوان بها، فأذهب الله ما كان عنده، وأخذ طريق الصوفية.

حرص الشيخان — في كل أقوالهما وأفعالهما — على التمسك بالسنة. ذلك كان حرصي، وما دعوت إليه. أذكر نصيحتي لخواص تلاميذي: إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة.

إذا لم أكن ألَّفت الكتب، توضح وتيسر الفهم، فقد خلَّفت الكثير من الأذكار والأوراد والأحزاب التي كتبها في حِكَمه تلميذي ابن عطاء الله السكندري، البحر الكبير، والبحر الصغير، وحزب الشاذلي.

قلت لأحد المريدين: كل علم يسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النفس، وتلتذُّ به الطبيعة، فارمِ به، وإن كان حقًّا، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله، واقتدِ به، وبالخلفاء، والصحابة، والتابعين من بعده، وبالأئمة الهداة المبرَّئين عن الهوى، ومتابعته تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة، المضلة عن الهدى وحقائقه.

يعرف ولي الله المرسي ما أعرفه عن امتلاك مولانا الخضر الكثير من القدرات الروحية. لا أحد يعرف من أين يأتي، ولا إلى أين يذهب. يرد القوى غير المنظورة، يطرد الأرواح الشريرة، يلامس بعصاه البحر، فتجمد المياه، يمتلك القدرة على التواجد في كل مكان. ثمة سحابة تلازمه في سيره ووقفاته، يدعوها فتلبِّي، يغتسل، أو يتوضأ بمائها.

شغلني السؤال، شردت في المعنى الذي قصده المرسي: هل ما زال الخضر يخالط الناس، يراهم ولا يرَونه، يحمل الهداية والموعظة الحسنة؟

عمد الخضر إلى التستر والاختفاء، توارى عن أنظار الناس، لكنه دائم الحضور بينهم، يسير — على غير هيئته — في الشوارع والميادين، يخترق الحواري والأزقَّة، يجلس على القهاوي، يرى الحضور ولا يرَونه، يجيد الإنصات، ويعاني التأثر، يرعى اللائذين بمناقبه من العباد والزهاد والغلابة وطالبي النصفة والمدد، يعطون أسماعهم، لا يعطون أبصارهم، يراهم الغوث الخضر، ولا يرَونه، يخاطبهم أحيانًا دون أن يتبينوا مصدر الصوت، يصلي في الجوامع والزوايا، يزور المقامات والأضرحة، خصَّه الله من علوم الباطن ما استعصى فهمه على النبي موسى. لن يموت إلا عند قيام الساعة.

لم ينسبه الناس إلى الأنبياء، ولا اعتبروه من أولياء الله، لكنه — في أفواههم — الأستاذ، القطب، الغوث، ومسميات أخرى كثيرة. اغتسل في مياه بحار العالم كلها، عالمه النبوءات والإلهامات ونُذر السماء. وهبه الله أسراره، وأراه ما يغيب عن أعين الآخرين.

فاعلم أن معرفة الولي أصعب من معرفة الله.

الله معروف بجماله وكماله، أما الولي فهو مخلوق ميزته الزهد في الدنيا. ما يُنسب إلى الأولياء من مكاشفات وكرامات ومناقب، إنما هو من قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء، هي قدرة الله لا قدرة الولي. حتى الاستغاثة لا تكون إلا بالله سبحانه، الاستغاثة بالأولياء ليست لذواتهم، إنما هي توسل كي يتشفعوا بهم إلى الله. أذكر قول أبي يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق، كاستغاثة الغريق بالغريق.

لأن ما يُنسب إلى الولي من كرامات هي ثمار قدرة الله، فإنها دافع الولي لمحاولة تعميق خضوعه للذات الإلهية. يدرك أن ما نُسب إليه هو صنع خالقه، وخالق الكائنات، يخاف — لو أنه صدَّق ما ينسبه الناس إليه — أن تنقلب عليه الحال، وينقطع عنه الوصال.

ما قيل من أن تغسيلي ودفني في حميثرا، أعقبه وفرة المياه فصارت تكفي الركب إذا نزل موضع الضريح، ولم تكن قبل ذلك كذلك، هذا القول يتحدث عن قدرة الله، وليس عن قدرة الولي.

سلطان الإسكندرية هي التسمية التي أطلقها الناس على المرسي أبي العباس، يرَونه العون الذي يغيثهم أوقات الشدة، يمنع البلاء، يقتص من الظالم، يُظهر الحق. منع أذى أفراد في الفرقة الشاذلية لبقية المريدين، وصد غارات أتباع الفرق الأخرى، اعتبره مريدوه شيخ مشايخ الصوفية، وقطب عصره. أقبل الناس عليه، يلتمسون منه الغوث والاستجابة والفرج في يقينهم أنه ما حاصرَت امرأً ضائقةٌ، ولجأ إلى مقام الولي، حتى يفرج الله ضائقته، يبدل بعسره يسرًا. قدموا له النذور، أوقدوا القناديل والشموع، قبلوا الأعتاب، عُنوا بإقامة احتفالات مولده في موعدها.

ومضت عيناه بنظرة مشفقة: هل أتعبتك زحمة المولد؟

– اختصرت الطريق أول الميدان. أعرف أنها هي الزحمة نفسها في مولد «حميثرا». الاختلاف في الطقوس.

قال بلهجة معتذرة: احتفالات الموالد بما يفوق قدرات الناس لتصورهم أن الأولياء حداتهم إلى القرب من الله.

– ضاقت الظروف بالناس. تصوروا الخلاص في الأولياء.

حدست من ارتعاشة فمه أنه يريد أن يقول شيئًا. أومأت بنظرة مستحثَّة.

– كما أرى، فالموالد تتحول إلى مناسبات للتبطل والتعطل عن الكسب.

– كل شيء جميل في حياتنا عرضة للإساءة والتشويه.

فسرت جبهته المجعدة بأنه يفكر فيما لم يفصح عنه.

استعدت قوله في إجابة السؤال: ما تلك بيمينك أيها الولي؟ قال: هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى. فيُقال له: ألقها، فناء عنها، فألقاها، فيكشف له عن حقيقتها، فإذا هي حية تسعى. ثم يُقال له: خذها ولا تخف، فلا يضره أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله، كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذي به ألقاها، فأطاع الله في أخذها، كما أطاعه في إلقائها.

– الشيوخ يحرصون على اختلافات الفرق، لا يشغلهم ما يعانيه الناس.

استطرد في نبرة مبطنة بالاتهام: كان شاغل شيوخ الصوفية حل مشكلات المريدين. تبدل الحال، المشكلة الآن هي الشيوخ.

– الناس يصدقون ما يقول شيوخهم، على الشيوخ أن يتقوا الله في عظاتهم، وما يقولون.

أخذني الجلوس إلى ولي الله. الذكريات تستعيد الذكريات، ومضة مفاجئة، تعيد ما كنا نسيناه من ذكريات قديمة.

وهو يودعني على الباب الخارجي للجامع: أتصور الحمام في الميدان دون أن يخشى الأذى.

ولاحت على شفتيه ابتسامة وليدة.

– أحبه ياقوت العرش وتشفع له!

ومضت في ذهني حكاية رواها محاسيب ياقوت العرش، وإن لم يشر إليها ولي الله في حواراتنا: حطت حمامة على كتف الولي، وهو جالس إلى مريديه. همست في أذنه بما تبينه. قال: بسم الله، نرسل معك واحدًا من مريديَّ! قالت الحمامة: ما يكفيني إلا أنت. ركب الولي بغلته، ومضى من الإسكندرية إلى القاهرة، قال لمستقبليه في جامع عمرو: اجمعوني على المؤذن محمود شلش. لما جاء المؤذن، قال له ياقوت: هذه الحمامة أخبرتني بالإسكندرية أنك تذبح فراخها في المنارة. قال المؤذن: صدقَت الحمامة، ذبحتُ الفراخ مرارًا. قال ياقوت: لا تعد! قال المؤذن: تبت إلى الله تعالى!

لحقني سؤال المرسي، وأنا أواجه أفق البحر: لماذا يوجَد الحمام في مدن الدنيا ويغيب عن مدننا؟!

٦

عانيت نزول السلالم الرخامية إلى قلب الميدان، كانت الشمس قد تسحبت في الأفق، ازدحم الميدان بكلوبات الغاز واللمبات المتدلية من الحبال المتقاطعة، واللافتات الملونة، عليها أسماء الفرق الصوفية، وشعاراتها، تعلو الخيام المتقاربة، تتحول الخيام واللافتات إلى ما يشبه الصخب اللوني، يتخلله سرادقات الإنشاد والأغنيات والأذكار وتلاوة القرآن ورواية السيرة النبوية، والتكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، والسيرك والمراجيح والدفوف والنايات والطبول والنشان واستعراض القوة، وكشك الطهور وباعة البخور والسبح والمناديل المحلاوي والشيلان والطواقي المنقوشة والطرح والأساور والخواتم والحلقان والسلاسل والعقود، والمصاحف وكتب السيرة والأوراد والأدعية، واللبان وحصان المولد وعروسة الحلاوة، وأقراص الحمص والسوداني والسمسمية وحب العزيز والمشبك، وقطع الهريسة والبسبوسة، والترمس والشموع والزحام والأنفاس، ورائحة الحشيش والثلاث ورقات وتناثر العرق.

كما تعلم، فإن المناسبات الدينية المهمة تمتد في الأزمنة؛ ليلة الإسراء والمعراج، ليلة النصف من شعبان، يوم تلقِّي النبي موسى من ربه الوصايا العشر، ليلة تحويل الصلاة من الأقصى إلى الكعبة المشرفة، رؤية هلال رمضان، عيدا الفطر والأضحى، الحج إلى بيت الله، ذكرى يوم الهجرة، يوم عاشوراء، مولد الرسول المعظم، موالد آل البيت وأولياء الله.

زمن الولي مقدس، لا يتصل بزمن الناس الدنيوي، هو بلا نهاية، لا يجاوز الميلاد والوفاة، مناقبه ممتدة في الأزمنة، الجسد يبلى، يفنى، أما الروح فباقية لا تموت. روح الولي — في يقينهم — تحوم في سماء الحي، ترعاه، تحميه من الأخطار. يتوارث المحاسيب إقامة الموالد بيقين حياة الولي في حياتهم، يؤدون الطقوس في حضرته، الإنشاد والأذكار

والابتهالات والأدعية، ينذرون الصدقات من المال والطعام والكسوة، حياته مستمرة في حياتهم، تهبهم الطمأنينة والسلام.

أغمضت عينيَّ بالتأثر — وأنا أميل من زاوية الميدان — لرؤية كهل يقارب الستين، ينثر الحبوب في المساحات المتبقية من زحام المولد.

قال لنظرات الناس المتسائلة إن ولي الله المرسي زاره في المنام. قال المرسي: «لو أن الطير وجد ما سيأكله فسيلزم الساحة.»

استعاد طمأنة السلطان له بألا يحدث ما يروِّع الحمام، ويبعده عن المكان.

وجد الكهل في زيارة المرسي ما يجب أداؤه.

ملت في الدحديرة، خلف المسجد. التراب — بوطء القدمين — يتناثر، فلا يلامس البشرة، ولا العباءة.

سرت خطوات قبل أن تطالعني الزاوية الصغيرة.

شُيدت فوق ضريح الست مدورة — بعد زوال دنياها — مقصورة، لها ستر وفرش وقناديل. ثم لَحِق الزاويةَ تجديدٌ، وإن ظلت فقيرة، لا تساوي ما تحقَّق للعالمة الجليلة — بين المتصوفة — من مكانة.

لمحت ضوءًا ينبعث من النافذة المطلَّة على الدحديرة. من ارتقت أرواحهم إلى مرتبة الولاية، هم الذين يأذن الخالق سبحانه بتلاقي أرواحهم في رؤى الأعين.

جاوزت تهاني خادم الضريح في جلستها على باب الزاوية. أعرف حكايتها: صحبها رجل من قعدتها أمام مشنة الليمون في نهاية الدحديرة إلى صحن الزاوية. تعالى الهتاف من داخل الضريح: ضاقت عليكما الدنيا فدنستما بيت الله؟!

تلفَّت الرجل بالخوف، وجرى.

تهيأت المرأة للجري، فأمسكت قبضة الست مدورة بساعدها، وقال الصوت الهاجس: تفرِّين بجسدك، هل تستطيعين الفرار من نفسك؟!

تابت المرأة منذ تلك اللحظة، ولزمت خدمة الضريح.

طيفها — في الجلسة أمام المقام — ينتظر قدومي.

– الست مدورة!

المقام المغطى بالخضرة، فوقه الشموع ومناقد البخور، الخرق الملونة تتدلى من النافذة الحديدية الصغيرة، والأعمدة المحيطة، والسقف.

نفسي متأثرة بما أعرف من سيرة الست مدورة ومناقبها.

سمعت هاتفًا في المنام يدعوها إلى السير في طريق التصوف والورع والزهادة. تيقظت في نفسها مشاعر غائبة، أو أنها لم تكن موجودة. طلبت فترة تخلو فيها إلى نفسها، تتطهر مما قد تعانيه من آثام، تفرغها مما يشغلها بالصح والخطأ. اعتزلت الناس، وانزوت عن الدنيا. أقبلت على تعلم كل أنواع المعرفة والأسرار، ظلت على شوق دائم، لا يهدأ. في يقينها أن الله اختارها لحياة جديدة، حتى تؤم الناس لما فيه خيرهم وإصلاحهم.

قالت: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى.

صدت عن الزواج، وعن المتع جميعًا، عدا متعة العبادة. مالت إلى قلة الطعام والنوم والعزوف عن الكلام واعتزال الناس. شغلت أيامها بعبادة الله؛ العكوف على قراءة القرآن والسير والتاريخ، التأمل، الزهد، الصوم، القيام، الصلاة. حفظت الكثير من آيات القرآن، وأحاديث الرسول. استوعبتها الذاكرة، واستشهدت بمعانيها، في بالها قول أم المؤمنين عائشة: إن نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء من التفقه في الدين.

عُرف عنها كثرة الخطى إلى المساجد، تحرص — في العشر الأواخر من رمضان — على الاعتكاف في الزاوية، تتقرب إلى الله بالمداومة على الذكر والصلاة والصوم والتسبيح والاستغفار، تقضي معظم لياليها — إلا حين يأخذها التعب — في الصلاة بين ركوع وسجود.

فنيت عن نفسها، وعن الناس من حولها، وعن كل ما سوى الله، سبحت في أمواج الصوفية، غاصت في أعماقها، شاهدت، تأملت، عاشت الصمت والجوع والسهر والعزلة، أقبلت على التعرف والتأمل والتعجب والتشوف والتطلع والتتبع والتعلق، والتآلف والود والحب والغرام والصبابة والكلف والعشق والشجن. عُرف عنها كثرة البكاء، والزفير والشهيق، والغشية، والصراخ، والصياح، والتلفظ بكلمات السكر. انشغلت بطلب السمو الروحي، ذابت روحها في فيض من النور الإلهي. أشرق على وجهها نور التجلي.

حرصت على صفاء العلاقة بين أولياء الله وبينها، وإن أشارت إلى الكثير من الأمور التي ينبغي أن تناقش فيها الأولياء، ومن خلفهم: الأوامر والنواهي الدينية. قرأت كتبًا في الرد على المتكلمين، وعلى مهاترات الرافضة والملاحدة، وفي الفقه والتصوف والحديث والكلام. عرفت من حقائق الوجود ما لم تكن تعرفه من قبل. أخذت على الأولياء وخلفائهم قصر الجهد على نقل النصوص، دون مراجعتها، وتأملها، والقول بما يقنع، أو يحتمل الرد. النصوص التي تسكت عنها، هي أقرب إلى البدع، لا تستحق الرد.

قالت: يصعب أن أتخذ قرارًا صائبًا ما لم أفهم.

قال لها ابن عطاء الله: ألم تساعدك مئات الأعوام على الفهم؟!

ظلت على عهدها بنفسها، باطنها المراقبة والإخلاص، وظاهرها المجاهدة. يرافقها الطهر حيثما سارت وقعدت. إذا نزلت بيتًا، أو حارة، أو مسجدًا، اعتقد الناس أن البركة حلت بالمكان.

عبد الصبور طنطاوي صاحب مكتبة النجاح بشارع الموازيني، تبرع لزاويتها بمكتبة خشبية صغيرة، ومجموعة كتب في التوحيد والفقه والحديث والتفسير والسيرة النبوية واللغة والتاريخ والأدب وتراجم الصالحين.

أَلِف الخواص تحفيزها أن يسيروا في أمور الناس على الطريق المستقيم. ألزمت مريديها بأداء الصلوات الخمس، في مواعيدها.

– ما معنى حفظكم للقرآن دون أن تعملوا به؟

حتى لا يحاكيها المريدون في طقوس عبادتها، فقد دعتهم إلى نقيض ما تفعله، يسيرون في الطرق التي اختاروها، لا يحاولون السير في طريقها الخاصة. حين ينزل دم الحيض على سيدة من المعتكفات في صحبتها، فإنها لا تُبطِله، تدعوها إلى قطع ما تؤديه، تتطهر في بيتها، ثم تعود، فتبني على ما مضى من الاعتكاف.

الكلمات تنساب من فمها إلى آذان المريدين، صوتها كالهمس، يُصيخون السمع، يتدبرون المعاني. تمتلك نظرة تستجلي البواطن، وما قد تحاول النفس إخفاءه. تَنفُذ عيناها إلى ما يجول في ذهن محدثها، تلتقط أسرار مريديها وعواطفهم. تعرف من صمت المريد، وانفعالات ملامحه، ما يشغله، ما يريد أن يقول.

قالت للنظرة المشفقة في عينَي الشيخ الحنفي تعيلب خادم جامع السلطان: الإسلام دين البشر، والبشر امرأة ورجل.

لا تأذن — في مجلسها — بالكلمات الزاعقة، أو العابثة، القادحة. تنهر أصحابها، وتأمرهم بالمغادرة. تميل إلى المباسطة، وإن كانت ترد الأسئلة التافهة بكلمات منتهرة، وتضيق بالمزاح السخيف. وكانت تتألم لغياب التأثر عند قراءة القرآن، الضحك في الجلسة، عدم الإصغاء، اختلاط الإيقاع، اختصار وقت الذكر حتى يحصل الوجد والحال.

راعها النشيج الذي تمرغ فيه المريد سرحان عبد الصبور على الأرض، تابعته حتى هدأ، ثم قالت: ما فعلته لا صلة له بطريقتي، اترك هذا المكان.

طردت رجلًا لم يكن من مريديها، ولا قدم نفسه بصفة. لاحظت إكثاره من المزاح، فخشيت الفوضى. هتفت: اذهب، فلا أراك في حضرتي بعد الآن.

قال الرجل وهو يغادر المكان: ظننت أن رقة القلب من طبع النساء.

قالت الست مدورة: أحكام الدين تعلو عن مشاعر البشر.

أوصت أن تبقى الطريقة بعد وفاتها. شيخ وقتها من يبايعه المريدون. لم تشترط أن تكون البيعة لسيدة أو لرجل. المهم أن يخلف ما يرضى المريدون من السيرة العطرة. أضافت إلى ما أوصت — قبل موتها — فلا ترث الحكومة جزءًا من تركتها.

تقضت ساعات، ونهار وليل، وأسبوع وشهر، وفصل وسنة وعقود، صارت الدنيا إلى غير ما كانت عليه قبل زمان بعيد. ظل التحلق حول المقام بالنسوة والنذور والشكايات والهتافات والدعوات والتوسلات والزغاريد.

غالبت الحيرة. أواصل السير في الدحديرة الخلفية إلى شارع الموازيني، أزور ولي الله علي الموازيني في ضريحه، داخل جامعه المطل على الميدان ذي التقاطعات. زرته من قبل لأمور تتصل بأحوال المسلمين.

ورد ولي الله أبو الفتح الواسطي في بالي، فاتجهت إلى مسجده.

٧

مسجد أبي الفتح الواسطي بالقرب من جامع أبي العباس — كما اعتدت رؤيته — فقير البناء، لا مئذنة له ولا قبة، أعمدة الصحن ثمانية، من الأسمنت المسلح. المدخل الضيق، البسطة المتكسرة الأرضية، السلالم الحجرية المنحولة، تصعد إلى الطابق العلوي.

اعتدت الدخول من الباب المغلق إلى القاعة الواسعة، المفروشة بالحصير. يندفع ضوء النهار من النوافذ — أعلى المنور — إلى داخل القاعة، يتدرج الشحوب في الداخل، حتى الظلمة الشفيفة. علقت على الجدران لوحات لقبر الرسول في المدينة والحرم النبوي، الحرم المكي والكعبة، البراق، ناقة صالح، الكعبة وفيلة أبرهة تهاجمها، سفينة نوح وما عليها من مخلوقات.

لا أتوقع — كما ألفت في زياراتي السابقة — ولي الله أبا الفتح الواسطي يتمشى متباطئًا، وكفاه معقودتان خلف ظهره.

شيخ الرفاعية بالإسكندرية. خلَّف ولي الله أحمد البدوي في القيادة الروحية لجماعة الرفاعية. استقر في الإسكندرية فترة، ثم انتقل إلى طنطا.

اختياره الإقامة في طنطا كان عن بصيرة وحسن رؤية. طنطا، طندتا، تتوسط المسافة بين ضريح ولي الله إبراهيم الدسوقي ومقامه، وبين مقامات آل البيت، وأولياء الله، أو أضرحتهم، في القاهرة.

أدين له بفضل إرشادي إلى أستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث أبي محمد عبد السلام بن بشيش، الشريف الحسني. لما دخلت العراق، اجتمعت بالشيخ الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثر، وكنت أطلب القطب.

قال لي الشيخ أبو الفتح: تطلب القطب بالعراق، وهو في بلادك. ارجع إلى بلادك تجده.

أذكر قوله: من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه قطع عن قلبه كل ما دونه، ومن حُرم المعرفة حُرم حلاوة الطاعة، ومن حُرم حلاوة الطاعة حُرم المؤانسة في الخلوة، فلا يجد في المعاملة رؤية المتعة، ولا يعرف قدر الله على الحقيقة، ويُقلَّب في الأحوال فيسقط عن استقامة السر مع الحق.

سبقني إلى إلقاء الدروس بجامع العطارين. يحثُّ تلاميذه على التمارين التأملية، وإدامة التدريب على لزوم الهمة، لا تصرفه عنها شواغل، ولا غفلات. يحرص أن يكون لكل تلميذ دوره في الطريقة. من تنقصه القدرة على نقل أفكار شيخ الوقت، يخدم التلاميذ ومحبي الطريقة بتقديم الطعام والمشروبات.

اللهم كن بنا رءوفًا، وعلينا عطوفًا، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، وقوِّمنا إذا اعوججنا، وأعنَّا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا كلما عثرنا، وكن لنا حيثما كنا.

أطلتُ الوقوف والتذكر أمام الضريح، تلوت الشهادتين والفاتحة وآيات من القرآن الكريم. انتبهت على قول الخادم: الشيخ مبروك يلزم — في الأيام الأخيرة — وكالة شارع الميدان.

فاعلم أن عمى البصيرة في ثلاث؛ إرسال الجوارح في معاصي الله، الطمع في خلق الله، التصنع بطاعة الله. هذا ما يصح نسبته إلى الشيخ مبروك أبي السعود.

باب الوكالة الخشبي يُفضي إلى فناء ترابي، تحيط به دكاكين ومخازن، وفي الطابق العلوي صالة واسعة، تحيطها غرف متلاصقة، مفتوحة، وموارِبة، ومغلقة. في المواجهة ممر يفضي إلى الحضرة المطلة على الخلاء، يخلو فيها الشيخ مبروك أبو السعود إلى نفسه. تتوسطها مناضد مغطاة بالصاج، على قوائم خشبية، أو لصق الجدار. على الأرض حصيرة من البلاستيك الملون، وتتناثر وسائد صغيرة، متباينة الأشكال والألوان؛ للاتكاء عليها، أو للجلوس فوقها. زُين أعلى الجدران والأفاريز بالنقوش وآيات القرآن والكتابات العربية. مجامر البخور في الأركان والزوايا، تعلو بروائح المسك والعنبر والعود والصندل والمر.

في بالي ما أثاره في آخر خطبه عن إفشال مؤامرة لقتله. الملائكة تمنع السلاح من أن يصيب جسده؛ ضربات السيوف، طعنات الرماح، قذفات الخناجر والنبال.

هل يخاف الشيخ مبروك أبو السعود مريديه؟

يأتي المتشفعون ببركاته، يجلسون، يقفون، في وضع التأدب والخضوع، يحنون رءوسهم، ويكتِّفون أيديهم إلى ظهورهم. عدا الخواص، يراهم ولا يرونه، يسدل على جسده عباءة خضراء، وتكر أصابع يده مسبحة كثيرة الحبات، ويتمتم بأدعية تذهب الشر، وتقهر الشهوات، وتُخضِع النفس لله. ينتصر أولياء الرحمن على أولياء الشيطان.

أعد للانخراط في سلك طريقته طقوسًا خاصة، أولها طقوس الندامة والتوبة. إذا دخل التلميذ مجلس الشيخ، فإنه يخلع نعليه أمام باب الحجرة.

شدد على من يطلب الانضمام إلى الطريقة، حتى من ألزمهم المبايعة على السمع والطاعة، أن يعترف — بينه وبين شيخه — بما ارتكبه في حياته من ذنوب، فيشفع له عند الله.

لم يكن يأذن بأي خطأ، من يخطئ في التصرف الصغير، يفعل الشيء نفسه في التصرف الكبير. حدد دعوته بأنها لإيقاظ القلوب، وإحياء النفوس، وإخراج الضالين من الظلمات إلى النور.

يسكت عن الرد على أسئلة يرى فيها استفزازًا كي يكشف عن دقائق خصَّه الله بمعرفتها، فهو لا يملك أن يبوح بها حتى لأقرب التابعين.

أوصى المريدين ألا ينشغلوا بما يصدر عنه من كرامات، وخوارق يصعب تفسيرها. حذرهم من السؤال أو الاعتراض، المريد هو من تجرد عن إرادته، فلا إرادة له مع شيخه. لا يملك لنفسه شيئًا. المريد هو من يصير بين يدَي شيخه كالميت بين يدَي غاسله. إن أبى المريد سماع قوله، ردد تعاويذ، فسمَّره في الأرض، لا يقوى على الحركة.

قال إنه يتلقى الوحي مباشرة، ومنذ فترة طويلة، من الملك جبريل، يردد عليه ما ينبغي فعله، وينصحه. جعل إقامته في سرادق القرب، يرنو إلى التجليات الإلهية. تجلَّى الله عليه بالكشف عن مفاتيح الغيب، والتعرف إلى ما في خزائن الملكوت، تَصدُر أعماله عن الإلهام الإلهي، والهاتف السماوي، وأنباء الغيب.

جعل من مشاركته في سباق البنز، عصر يوم صيف، فعلًا ثابتًا، تنطلق عربات البنز ذات الجواد الواحد المزدان بأعلام صغيرة ملونة وشخاليل، من قصر رأس التين إلى قصر المنتزه. تعود من الطريق نفسها، يتقدم الشيخ السباق على جواده، في يده سيف خشبي يهزه، كأنه يتوعد أعداء العقيدة. يعي المريدون أن الأرض التي يطؤها الولي في السباق مباركة، وينسب الولي — من ناحيته — هتاف أبناء رأس التين والسيالة، كل إلى الآخر، ما يزيل عن النفوس صدأها.

يهتف أبناء رأس التين: سيالة يا سيالة ... يا اللي ما فيكي رجالة.

يرد أبناء السيالة بالهتاف: قفة ملح وقفة طين ... على دماغ راس التين.

حين تبادل مريدوه النظرات لعدم قيامه لوضوء أو صلاة، قال إن الله أسقط عنه التكليف، إلا إذا أراد، لا يصلي، ولا يصوم، ولا يسافر إلى مكة، ولا يطوف حول البيت الحرام، إنما الكعبة هي التي تطوف حوله، دون أن يبرح مجلسه.

فاعلم أن من يزعم رفع التكليف — سقوطه عنه — يعني إسقاط الشرائع. ذلك ما يرفضه الصوفية.

سأله خواصه — ذات أصيل — عن سبب شروده. قال إنه لم يشرد، إنما كان يطوف بالبيت الحرام، وجدد — في نهاية الطواف — وضوءه، وحضر صلاة العصر، ثم عاد.

يعتز بأنه أدى فريضة الحج من قبل أن يولَد. أتى المخاض أمه في آخر أيام أدائها مناسك الحج. نذرته المرأة من يومها لدينه.

قال لمريديه إن من يحرص على حضور مجلسه، والاستماع إلى عظاته، والعمل بما فيها، تحرم عليه نيران جهنم. أعلن امتنانه لأن ولي الله أحمد الرفاعي خصَّه بما يتفرد به عن بقية الأولياء؛ فهو يصلى الصبح — مثله — في البيت الحرام، والظهر في الروضة الشريفة، والعصر في المسجد الأقصى.

إن غلب عليه الحال، تكلم بلغات غير التي يتكلم بها الناس، يعرفون أنه يخاطب أناسًا آخرين في عوالم أخرى، أو أنه يخاطب ملائكة من جند السماء. وله صحبة مع الجن، يعينونه على قضاء حاجات الناس.

سلب المريدين قواهم وأفكارهم وإرادتهم، صاروا مثل الأوراق التي تبسطها إرادته وتطويها. هو قطب الغوث، يتصرف في الوجود، لا معقب لمريديه على أوامره، المريد لا يبدي رأيًا، ولا ينفذ قرارًا، إلا بعد أن يرجع إلى الشيخ، يعرض عليه الأمر من ألفه إلى يائه يطلب المشورة، وما ينبغي فعله.

جذب المريدين إلى حضرته، فلا يستطيعون التحول عنها، لا يفارقونه إلى شيخ آخر، أو ينتمون إلى طريقة أخرى، الطريقة ليست رداء ننزعه بالضيق، أو الملل، نختارها فتلتصق بجلودنا. العهد صلة يملك الشيخ فصمها وحده.

إذا انقطعت الكهرباء، واصل المريدون تلاوتهم للقرآن، وقراءتهم للأوراد والأحزاب، في ضوء الهالة المحيطة برأس شيخ السجادة.

صار له — بكثرة الأتباع — نجدة ومنعة على من ينافسه في طريقة أخرى، يأتمرون بأمره، ويبطش بأيديهم.

يلتقي أتباعه داخل المساجد والمقاهي، ربما اندسَّ أحدهم وسط لمة المتفرجين على صيد الجرافة، لا يعرف الناس أين يقيمون، ولا الأعمال التي يمارسونها، حدس حتى مشايخ الطرق أنهم مريدو فرقة صوفية مما تشغل خيامها وسرادقاتها ميدان أبي العباس. وزع أعوانه في المدن والقرى والبنادر وتحت الجسور، يرتدون أزياء مختلفة، يتكلمون لهجات تنتسب إلى الأقاليم.

تمنيت — في سيري ناحية جامع ياقوت العرش — أن يستغفر الشيخ رب العالمين مما جرى منه من أقوال وتصرفات قاسية في حق مريديه.

أخذت عليه تشدده؛ فهو يرفض أن يجالس المريدون شيخًا غيره، ولا يأخذون العهد على شيخين، مهما تكن البواعث التي يستندون إليها. اقتصار المريد على شيخ واحد، لا يبدله؛ لأنه اختار الأكمل في ظنه، الأفضل بين المشايخ الذين اقتعد مجلسهم، والاستمساك به واجبه وحقه. اكتسبتُ شخصيًّا — واكتسبَت الطريقة — تسامحًا؛ لأني أخذت العهد من مشايخ الطرق جميعًا.

لا يشغلني انتساب المريد إلى فرق مختلفة، ما يهمني أن يتشاركوا في المجاهدة، وطلب العلم.

المطر لا تصنعه سحابة واحدة.

استعدت في نفسي قولي للمريدين: اصحبوني، ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلًا أعذب من هذا المنهل، فرِدُوا.

لم أضق برقم السبعين الذي بلغته فرق الشاذلية، تفرعَت عن الفرقة الأم فرق، تفرعت منها كذلك فرق أخرى، حتى بلغت ما انتهت إليه، أو أنها ربما تزيد إلى أرقام أكبر، الطرق إلى الله كثيرة، تفضي جميعها إلى الرحاب العلوية.

لا تثريب على المريد لو أنه أخلص في فهم الكتاب والسنة بمراجعة تعاليم أئمة التصوف، وأئمة الفقه، والعلماء الصالحين. للمريد — بعيدًا عن الطريقة التي ينتمي إليها — أن يختار من يأخذ عنه العلم، يتنقل بين يدَي شيوخ الطرق وأرباب القلوب والمعاملات، دون أن يسيء ذلك إلى شيخ طريقته، يختار من الفرق ما يجد فيها قربًا إلى نفسه، ومن الشيوخ ما يطمئن إلى دروسه ووعظه وإرشاده. إذا استقر اختياره، فإن الالتزام هو الطريق التي لا يبدلها، يخضع المريدون لما يرشدهم إليه من سلوك. إعجاب المريد بشيخه، وتتلمذه عليه — هذا ما ينبغي — لا يَحُول دون أن يطلب العلم من المشايخ الآخرين، يلجأ إلى كل من يُتاح له الأخذ عنهم من أهل العلم والفقه. الذي يرفض أن يتبع تلاميذُه شيخًا آخر إنما يخاف في نفسه قوة الفِرق الأخرى.

قلت للشيخ في هاتف: إلى أين وصلت رؤاك؟

رُوي أن الشيخ رأى — ذات أصيل — تغيرات كونية لم يُتَح رؤيتها لبقية الأولياء والناس العاديين؛ غليان في مياه البحر تصاعد منه بخار شكَّل سحبًا في سماء المينا الشرقية، مذنَّب تهاوى في نهاية الأفق، تعالي أدعية وتسابيح وابتهالات وإنشاد غائب المصدر.

فسَّر الشيخ ما اقتصرت رؤيته له من متغيرات كونية، بأنه في تلك اللحظة وُلد إمام العصر، وقطب الزمان.

تلفَّت الشيخ بالتشكك والحيرة: الإشارات تعددت في حياة الناس، لكنهم لم يفطنوا إليها!

قلت: تنبأ المشايخ من قبل كثيرًا بنهاية الزمان، والزمان باقٍ، لا يعلم نهايته إلا الله.

ورنوت إلى أسطح المدينة ومآذنها وقبابها وأبراجها وبناياتها العالية.

– شيخ المتصوفة يحب مريديه بلا علة، ولا يردُّهم بارتكاب زلة.

ذكَّرني بقول لي: على المريد أن يعتصم بالشيخ، ويتمسك به تمسُّك الأعمى على شاطئ البحر بقائده، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، فلا ينازعه في الأمر، ولا يخالفه.

قال: اعلم أن من قال لشيخه «لمَ» لا يفلح أبدًا.

وهو يحرك سبابته على نقوش السجادة: من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

– شيوخنا كل من علمونا الدين.

من مفردات الصوفية وتعبيراتها: العزلة، الخلوة، السهر، الورع، الزهد، التقشف، الصمت، التأمل، التفكير، المجاهدة، الصلاة، قراءة القرآن وصحيح البخاري، الذكر، الحضرة، الأدعية، الابتهالات، الإنشاد، مجالس الصلاة على النبي، القطب الغوث، الأقطاب، الأبدال، النقباء، الإشارات، الرموز، الألغاز، الجذبة، الصعقة، الغيبة، المحو، السكر، الشوق، المكاشفات، المشاهدات، الإشراقات، المقامات، القبض، البسط، القرب، الأنس، المحبة، المراتب الروحية، وغيرها مما يشق مسالك الأحبة.

همني أن أسبر غوره، ماذا يضمر في نفسه؟

– يؤلمني أنك تكفِّر من يستعصي عليه الفهم!

أخرج من جيب العباءة منديلًا محلاويًّا، فرده، مسح به رأسه وجبهته ووجهه.

– لم أحلل إلا ما يستحق التسمية، وحرمت الخبائث.

– ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأنا أضغط على مخارج الكلمات: وجادلهم بالتي هي أحسن.

علا صوته مغضبًا: ما قيمة الدين إن لم أمارس شعائره؟

وشوح بيده: إذا رضي مولاي عني فلا أبالي بسخط سواه.

كما تعلم، فإنه عندما يواجه الشيخ آراء مريديه بالقوة، يحاول قمعها؛ فهذا دليل ضعفه.

همست بالسؤال: من شيخ طريقتكم؟

ضرب الأرض بعصاه: إذن فأنت تنكرني؟!

لاحت في الأفق نُذر شيء غيبي، لا أعرف كنهه ولا تأثيراته.

– النصيحة واجبي. من حقك أن تقبل نصيحتي أو ترفضها.

حملق في وجهي، كأنه لا يصدق ما قلت.

قلت: عندما تعمق الكراهية، فلن تجد في آراء من تكرهه، أو حتى تصرفاته، ما يدعوك إلى قبولها. سوء الظن يبقى جسرًا وحيدًا بينك وبينه.

علا صوته بالغضب، فانتفخت عروق رقبته: من يرفض الدواء ليس عليه أن يأمل البرء من المرض!

– إذا لم تفهم أفعال الناس لقاء كلماتك وتصرفاتك فستظل الجدران قائمة بينك وبينهم.

داخَلَني إشفاق لتقلُّص ملامحه: أن يحب المريد شيخه أفضل من أن يخافه!

– أشعر أني محترم في نفسي، لا أطلب الاحترام في أعين الآخرين ولا كلماتهم.

ومد يده، يمسح الرذاذ المتناثر من فمه على كتفي: الشيخ الحقيقي لا يستحي من أفعاله.

علا صوتي بما لم أعهده في نفسي: انفضَّ عنك أتباعك فلن تجد من تقوده، وإذا أديت صلاة الجماعة فلن يشاركك الصلاةَ أحدٌ.

زفر في نفاد صبر. ضرب الفراغ بعصاه:

– أنا لا أجبر أحدًا على الأخذ عني!

أهملت التلميح الذي وشت به كلمات الرجل:

– افعل ما ييسر لك الله فعله.

– هذا ما أفعله.

ملتُ بظهري إلى الخلف، بتأثير الجلسة الساكنة الطويلة:

– حتى لو حاولت من ناحيتي أن أصنع شيئًا فسيكون حرثًا في البحر.

وتهيأت للنهوض: ما لم ينقذك الله فستظل بعيدًا عن الطريق حتى تتوه.

عامل الشيخ مبروك أبو السعود مريدي الطرق بالترغيب والترهيب، والمنح والمنع، يفسح صدره لمن يقصدون حضرته، يصبر على مريدي الفرق الأخرى إن لزموا المسالمة.

مال إلى حب الرئاسة والجاه والمدح وخوارق العادات. أملى عليه طموحه أن يتسلط على الفرق، يجد في اختلافاتها، ونزوع شيوخها إلى القسوة، ما يدفعه إلى التسلل بأتباعه.

سكت مريدو مشايخ الحي عن الشرط الذي حمله أتباعه، أن تكون كلمته نافذة على كل الشيوخ، يلتزمون بما يقضي، لا يفتي أحد مشايخ الطرق دون أن يعرض عليه اجتهاده. من يأذن له بوِرد يرفض أن يتركه أبدًا، هو الورد الذي رضي به الشيخ، ومن واجب المريد ألا يخالفه.

جعل له مريدوه منزلة أفضل من منازل شيوخ الطرق الأخرى. تجري الأمور وفقًا لما يراه الشيخ، ويقضي به، وسط الحلقة، يؤمِّن المشايخ ومعلمو الحلقة وعامة الناس على كلماته، وما يقضي به من أحكام.

قلت في حزن حقيقي: أخشى أن تفقد الأمر والنهي في هذه الجماعة.

ورفعت صوتي ليعلو على ضجيج الزحام: ربما لا يكون لك مكان بين ناس بحري.

تابعته وهو يمضي في اتجاه البحر، عدت إلى الميدان بعد أن غيَّبَته انحناءة الطريق إلى الكورنيش.

لم أناقش — حين عودتي إلى حميثرا — ما بلغني من روايات الناس في بحري، القلة من المقيمين في البنايات المتقاربة، أو المتلاصقة.

شاهدوا مبروك أبا السعود وهو يركب جواده على الأرض المسفلتة، بين البنايات المتقاربة في نهاية لسان السلسلة، تقافز الجواد فوق رمال الشاطئ، في سيره نحو البحر، أثارت حوافر الجواد رذاذًا متناثرًا فوق الموج الساكن، لما بلغ العميق، جذب لجامه، فهبط في الموج بكل جسمه، الدوامة الهائلة اتسعت دوائرها، تقلصت مساحتها حتى التلاشي.

أدرك المحو ما كان من أمر الشيخ أبي السعود، زال من حياة الناس، كأنه لم يكن.

٨

خلفت شارع سيدي كظمان أمام جامع الولي ياقوت العرش بميل للسيالة، حتى جامع الولي نصر الدين.

فسر لي الخادم مسعد بواعث تقاعس الشيخ عن استقبالي، هو مشغول فيما لم يتصور حدوثه، ولا كيف يعالجه.

كان الشيخ نصر الدين تلميذًا لأبي العباس، فهو مريد لأخص خواصي. هل انشغل بما كان عمله زمن حياته في الدنيا، قاضيًا شرعيًّا لأهل مصر.

تنقل مسعد بين الشمعدانات، في الجوانب والزوايا، غرق المكان في ضوء أميل إلى الشحوب.

شمل الشيخ عوض البابلي — واعظ مسجد نصر الدين — صحن المسجد بنظرة متأملة، المنبر والمحراب والنوافذ والأبواب، والرخام الملون في الجدران، والأرضية والنجفة الهائلة المتدلية من السقف، والقناديل المعلقة في الجدران، قبل أن يمضي — عبر الردهة الضيقة — إلى حجرة مقامه القريبة من الباب الخلفي.

لحقه صوت الخادم: المريد محمد عبد الشكور يلتمس العفو.

علا صوته الأجش: لو أنه أهمل طلبًا لي فلا بأس.

أضاف بنبرة تسليم: السهو عن ذكر الله يغفره الله وحده.

بدا صحن المسجد خاليًا، إلا من ثلاثة شكلوا ما يشبه الدائرة بالقرب من المدخل، وفرغوا لقراءة القرآن.

قال الشيخ في صوت متأثر: لم يعد أصدقاؤنا يأتون.

أمَّن مسعد بهزة رأس: آخر من كان يأتي حامد اللواني، اعتذر بأن المسافة بعيدة بين المكس وبحري.

هل تذبل الطريقة؟ هل تفقد مكانتها بين الفرق الأخرى؟

ما أراده الشيخ، وسعى إليه أن يكون مثلًا، يحاكيه من يختارون الصوفية طريقًا وملاذًا، عظاته للتنبيه والتحذير والإشارة إلى الصراط الذي نحسن السير فوقه، فنتجنب الجحيم. هي تنبيهات شرعية، تحذر من غواية الدنيا، فالآخرة خير وأبقى.

أولى نصائحه لمريديه أن يجاهدوا الأنفس، ويتدرجوا في المقامات والأحوال. خاف أن ينصتوا إلى صوت أنفسهم، فيخضعون — دون تنبه — إلى أهواء تقذف بهم إلى موارد الهلاك. طالبهم أن يكون جهادهم في البداية ضد أنفسهم، ضد ما قد تطلبه أنفسهم من المغريات. قال إن طهارة البدن عن النجس شرط في صحة القادر عليها، وإن عامة عذاب القبر من عدم التنزه من البول.

صنع الشيخ عوض البابلي ما رآه تعبيرًا عن نصائح الولي. تكررت تحذيراته من أن يؤدوا الصلاة بدون نية صادقة، يكبروا ويركعوا ويسجدوا من قبيل العادة، ورفع التكليف. وكان يطيل الصلاة، يصل ما بين التكبيرات بأدعية وابتهالات. حاكَوه في طقوسه؛ يطيلون الصلاة، يعتدلون الانتصاب فيها، يحرصون على التمكن والتطويل للركوع والسجود، رفع الأيدي للركوع، لزوم الصمت إلا لضرورة، إبطاء الخطوات، إرخاء العيون، إخفاض الرءوس، دوام الهيبة والوقار.

تعددت حالات طرد المريدين على ترك الصلاة في أوقاتها، منع الخلط بين أوقات الأحزاب وأوقات الأوراد، الأحزاب تُقرأ في أوقات محددة، والأوراد بلا وقت محدد لقراءتها. إذا طرد مريدًا من حضرته، فإن المريد لا يبرح الباب، يظل في موضعه، متمنيًا الصفح عما يكون قد أغضب الشيخ. تصيب عيناه كل من يسير في الطرقات عند رفع الأذان، لعله من مريديه. يلزم المذنب بالاستتابة، يقر بما فعله، ويطلب الصفح.

عرفت، بالقرب، أن الحياة الدنيوية — في نظر الشيخ عوض — بلا قيمة. صدق اليقين لا يتحقق بغير الخوف من الله تعالى.

نحن نرى مصائرنا في أجساد من سبقونا إلى الموت.

وتساءل: هل تعرفون كيف يتحلل الجسد؟

عاب على مريديه الفقر الروحي، وغياب المعرفة الصحيحة. حثَّهم على أن يقتدوا — وبقية الناس — بأقواله وأفعاله، رفض أن يسعَوا فيما يسعى إليه الناس من نعيم المعاش، يمارسون الظواهر دون المعاني التي تعبر عن صدق الإيمان، دعاهم لتصفية قلوبهم من شوائب النفس والدنيا، والاقتداء بسنة النبي، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، وأداء الحقوق.

ألف المريدون تحذيراته من الوقوع في الفتن، والالتفات إلى شيء من متاع الدنيا، ينخلعون عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر، يتيقظون بنداء الوعيد.

ينطق لسانه بالمؤاخذة والتقريع عندما يجد بادرة خطأ، أو انحراف عن جادة الدين، يُظهِر المجانبة لمن أنسوا إلى شيطانهم. لا يشغل الشيطان نوعية الذنب الذي نرتكبه، ما يشغله هو الذنب مطلقًا، أن يرتكب المرء ذنوبًا وليدة غواية الشيطان.

عندما اختاروه شيخًا للطريقة، فإن معنى ذلك هو اصطفاؤهم له من بين كل المشايخ، أخذوا العهد عليه بالاتباع، والتسليم له في كل ما يصدر من أوامر وتوجيهات. عَمُق المعنى برضا الولي، القطب الأعظم، عن نهجه وأفعاله.

حدد مريديه بأنهم أهل البصائر والقلوب، ميزهم بكثرة العلم والمراقبة والزهد والخشية وعلو الهمة، وتنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية.

طريقه هي ما أجمع السلف على السير فيها، طالت عظاته في الخوف من عذاب الآخرة. طالب مريديه أن يخلعوا عن أنفسهم ما يرتدونه من زخرف الحياة وزينتها، لا تشغلهم الشهوات عن ربهم ودينهم، ولا تدفعهم الموبقات إلى ما يصعب حصره. هو يلقي الخوف في قلوب المريدين؛ حتى يتقوا عذاب الآخرة، سبيلهم العبادة والمجاهدة والزهد في الدنيا.

كانت عيون المريدين تُعلَّق بشفتيه، تلتقط كلماته وتهديداته، أشد ما كان يتعبهم، عندما تأخذهم لحظات ممتدة بالصمت، والسكينة، والتفكر في الله. يفاجئهم بالصيحة: النار!

تشمل الرجفة أبدانهم، ويكتمون الصرخات، تجتذبهم دوامة الخوف، يحذرهم من الغرور، والفتنة، والحرص على الدنيا، وفي يوم لا يجد المرء حوله سوى زبانية جهنم، يصحبونه إليها، يُعاقَب بما فعل في الدنيا. نحن نأتي إلى الدنيا دون أن يكون لنا رأي، ونذهب عنها دون أن يكون لنا رأي، أنتم تملئون البطون، وترضون الشهوات، وتعيشون البطالة، ثم ترفعون الرءوس إلى السماء بالاستغاثات، السماء لا تغيث إلا من يخلص لدينه وآخرته.

– أنا لا أعظكم لتدبير شئون دنياكم، إنما أعدكم ليوم الحساب.

أجمعت خطبه على ذم الدنيا، وتقبيحها، والتنفير منها. يسرف في تخويفهم حتى يأخذ معظمهم البول، دعاهم لأن يُلزِموا قلوبهم ذكر الموت، حتى تغيب الدنيا من أذهانهم تمامًا.

جعل الكتاب والسنة مدخلًا لدروسه، لا يميل إلى ما يخالفهما. حتى الأفكار التي تتولد من التأملات والرؤى، يحرص ألا تأخذها التهويمات والمعاني الخاطئة. نحن لا نعرف شيئًا

حقيقيًّا عن أنفسنا، ولا نعرف ما يقدره لنا الله، علينا أن نعمل ما وسعنا، ونتقبل النتائج دون اعتراض.

حدد طريقًا واحدة إلى الله، هي الذل والانكسار والمسكنة. ألح على الخوف من الموت والآخرة والحساب والعقاب. تشهد على أفعال المرء كل أعضاء جسده؛ الجلود والرءوس والآذان والأعين والأيدي والأرجل والألسنة وكل ما شهد أفعال المرء من داخل نفسه. حظر على النساء نزول البحر، البحر ذَكر لا يجوز للمرأة أن تنزل في أمواجه.

أخذ على مريديه فهمهم للنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي. ساءه انشغالهم بأحاديث لا تتصل بما جلسوا من أجله، أبدى ضيقه من رفع الصوت في حضرته.

جال في عيونهم بنظرة ألزمتهم مواضعهم، فرغ لما بين يديه من قراءة، ثم أعاد النظر إلى عيونهم، فتنبهوا، فارقوا ما كان يصدر عنهم من تشوش. أشد ما يحرص عليه حفظ الحدود، وأداء الشريعة.

عُني بتوضيح اجتهاداته وآرائه المغايرة؛ ينكر الصلاة على النبي العظيم بعد الأذان، فهي لم تكن زمن الرسول، قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، فالقرآن كله واحد، صلاة الجمعة في الشوارع والميادين، دعاء النصف من شعبان، احتفالات المولد والجلوات، الذكر أمام الجنائز، قراءة القرآن في المآتم، وعند القبور، زيارة الأضرحة والمقامات، التوسل بالأولياء والصالحين أحياء وأمواتًا، التمايل في حلقات الذكر، والذبح لأصحاب النذور، يرفض الأذان الذي يطيل المؤذن مفرداته ويمدها، التبليغ خلف الإمام، المبادرة قبل الفجر ويوم الجمعة. من يتأخر عن موعد بدء الحضرة، يجد الباب الداخلي موصدًا، يُضطر إلى التمدد في البهو حتى تنفضَّ الحضرة، فينفتح الباب.

أن تتوافر في داخل الصوفي شروط الولاية، أفضل من ارتداء الثوب القشيب، والعيشة الأبهة، وخلع ألقاب التدين والعلم، ما أحرص عليه، ما يجب أن يحرص الولي عليه، هو التواضع والمباسطة.

همه إقامة الطاعات بأحكامها وآدابها، هو المرشد والموجه والناصح، كلمته لا بد أن تكون نافذة. وكان يكثر من التحميد؛ لأن مريديه يحاولون الاقتراب، وإن لم يبلغوا الهدف.

يطيل الكلام حتى تنطق وجوه المريدين بالتأسف والحسرة على الأيام التي لم يأخذهم فيها اليقين.

ألف الناس صعوده أعلى المئذنة، يكبر — بأعلى الصوت — ويهلل، ويسبح، ويستغفر، ويصلي على رسول الله، ويسلم عليه، تتلفت عيناه كأنهما تحرصان على التقاط أية حركة، يظل السيف الخشبي في يده، حتى يلقي الخطبة، ويتهيأ للنزول من المنبر.

يتقارب مريدوه، اثنان أو ثلاثة، لا يبلغون الأربعة فلا تتعالى الأوامر الزاعقة، يستعيدون ما حدث، تهمس الشفاه، تصيخ الآذان، تشرد النفوس في التوقعات.

سمى جماعته، فرقته، طريقته: أهل القبلة. جعل من الطريقة مدرسة للتربية الروحية، تعلِّم أبناءها نهج التصوف على أسس سليمة. أشد ما عُني به أن يقتصر توكل مريديه على الله، وأن يتخلقوا بالصبر والقناعة والرضا والزهد والمراقبة والمحبة، ويدركوا الجوهر، فلا يقتصروا على ظاهر الأشياء. ما يرد على لسانه يقوله، دون تعمد ولا زواق. الموت حق، وعلى المريدين أن يجعلوه شاغل حياتهم، ويستعدوا له، كأنه سيلتقيهم في انحناءة الطريق.

قال الشيخ عوض البابلي: نحن ذرات من الغبار، أو الرماد، في كون الله!

وهز إصبعه كالمحذِّر: قبل أن يُبنى هذا المسجد كان الموضع لمقبرة، فاعتبروا.

أدار نظره في وجوه المريدين، يتعرف إلى رد الفعل في ملامحهم. ظلت الوجوه ساكنة، ضرب راحة يده في راحة اليد الأخرى.

– أنا أهدر كلماتي عندما أخاطب من لا يسمعون!

أخذ عليهم كدورات الطبائع، وظلمة الأحاسيس. صدق اليقين لا يتحقق بغير الخوف من الله تعالى.

أجاد السيطرة على المريدين، هم طوع إرادته، حفلت عظاته بكلمات: الموت، السؤال، الحساب، الصراط، العقاب، النار، الجحيم. الكلام عنده طرف خيط، يلتقطه فلا يفلته، يكثر من التلفت ليرى تأثير كلماته في الوجوه، ويكتشف أمارات المخالفة في عينَي المريد. من واجب الشيخ أن يفطن إلى الشر في نفوس الناس، حتى خواص مريديه، فيمنع تأثيراته.

وهبني الله تفويضًا بمعاقبة المخطئين.

ينقل إلى المريدين ما يتلقاه من التعاليم الجوانية، يتبع تأكيده لحروف الكلمات، شروح عن دركات الجحيم حتى القاع السفلي، ما يلقاه الخاطئ على أيدي زبانية جهنم.

إن استغرقوا في عظاته، نقلتهم الكلمات من حال إلى حال. صاروا في صحبة الشيخ حيث يجلس، ويتنقل، ويؤدي الصلاة. إذا أسلم الشيخ نفسه للنوم، جلسوا بالقرب منه، لا يتحرك حتى يصدر عنه ما ينبئ بصحوه. جعل لهم حصة من البن المحوج تعينهم على السهر في التهدج والذكر.

لم يكن يني عن إشعال مخاوف المريدين. يشعرون في مفردات النار والجحيم والسعير، كأنهم — وحدهم — من سيواجهون ذلك المصير، حتى الطقوس التي دعا المريدين إلى أدائها، بدت غامضة، وباعثة على الخوف، كأنها طريقهم إلى الموت، أو ما هو

أقسى، فسروا تغيب المريد حمزة علوان بأنه تعبير عن غضبه من تعنيف الشيخ في آخر الحضرة.

بلغه قول حمزة علوان: الطاعة العمياء تُفقدني حريتي في التفكير.

أهمل قول حمزة بأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يحاسبه الله على أفعاله. وعد أن يعيده إلى الحضرة بعد أن يطمئن الشيخ إلى تطاير ما بنفسه من ذنوب.

قال: لا يملك الشيطان — لإغوائنا بالشر — إلا الوسوسة.

غامت نظرته، شرد في دنيا يراها وحده، ولا يراها المريدون:

إذا رفضنا سماعه فإننا نحتفظ بيقيننا.

وسرَت العصبية في صوته: غياب الولي قد يجعل الوسوسة صراخا!

ألزم مريديه أن يَقصُروا أرديتهم على الخيش. طالبهم بأن يُعنَوا بأرواحهم، يزيلوا — بطقوس كثيرة — ما قد تعانيه أرواحهم من الصدأ. نزع عنهم حق التصرف في أنفسهم، هم لا يتصرفون إلا وفق ما يريده شيخ الوقت، هو الذي يحكم إن كان ما يعتزمه المريد حلالًا أم حرامًا، مستهجنًا أم مكروهًا.

شكا مريده جابر السني من غواية الشيطان ووسوساته التي لا تتركه حتى في عزلته لذكر الله، نصحه الشيخ أن يغطس في المالح، لا يتحرك في المياه واقفًا، ما بين الفجر والفجر، حتى تتطهر نفسه مما علق بها من أدران.

أثار الناس — من خارج الطريقة — أن الشيخ لا ينظر إلا إلى عيوبهم، ولا يُعنى إلا بالكشف عن أخطائهم. وشَت ملاحظاتهم وميلهم إلى المجادلة بالرغبة في مخالفة عظاته، والخروج عن نواهيه، أخذوا عليه أنه يحرص على العبادات بأكثر من مراعاة أوضاعهم القاسية. لا تتحرى كلماته المعاناة والمشكلات والظروف الصعبة. ذهب ما كان قد استغرقهم — في كلمات الإمام — من الأمل.

ليست هذه عظات، ولا هي تعاليم الدين.

اعتبر نقباؤه ما يستنكره المريدون، وعامة الناس، من تصرفات الشيخ وأقواله؛ دليلًا على إخلاصه لولي الله، إنها تستعيد عِبَر الماضي، وتستشرف أفاق المستقبل.

مال المريد ياسر أبو علم عن الاتجاه نحو مقام ولي الله نصر الدين، عرف من كلمات الشيخ أنه فعل الكثير مما حذَّر منه الشيخ، ونصح بتجنبه. شعر — في اقترابه من المقام — بالخطايا تملأ نفسه، خشي أن يفاجئه الولي بعقاب يؤذيه، فأزمع العودة.

رُوي أن أباه دفعه في طفولته إلى مدافن العمود. اعتاد سيد عبد المقصود، القارئ بالمدافن، رؤيته وهو يدخل الباب المفضي إلى شارع الرحمة، يقتصر دوره على السير في

طرقات المدافن، يرى حوشًا تُوزع فيه الرحمة والنور، يجري إلى شجرة الجميز خارج الباب الرئيس، يعلو صوته بالنداء، يفز الجلوس من أماكنهم، ويتبعونه.

لما جاوز الطفولة، عمل صبيتًا للشيخ عارف الخولي مادح الرسول، يتبعه في الموالد والمناسبات الدينية. طرده الشيخ حين تبين محاكاته له في سرادقات بالإسكندرية، يؤدي مدائحه في ليالي المولد النبوي، والهجرة، والإسراء والمعراج، والنصف من شعبان، وشهر رمضان، وقدوم أيام الحج.

تعددت الروايات عن أنه كان ينام على الأرض، في أي موضع يصادفه، داخل مسجد، تحت شجرة، اتصال رصيف بجدار.

عرض نفسه على شيخ الوقت. جعله في خدمته يعد له مأكله وملبسه، ويلازمه كظله. ربما أذن له بأداء المدائح والإنشاد والذكر، يمتدح الرسول، يستعرض الأحوال وسوء الزمان.

قال الشيخ عوض البابلي: بُعد المسافة، هل هو السبب في تخلي مبارك الحنفي عن الطريقة؟

غالب الخادم حرجًا، وظل صامتًا.

واجهه الشيخ بنظرة مرتابة.

– كنتَ تبلغني بدبة النملة!

استطرد الخادم في حرجه.

– قال الحنفي وهو يغادر المسجد في آخر مرة: الشيخ يغطي عينيه، ويسد أذنيه، فلا يرى أو يسمع ما يدور في جلسات المريدين، بعيدًا عن الحضرة.

وخفض مسعد بصره.

– كان آخر ما سمعته قوله: لو أن شيخنا حاول أن يغادر الصَّدَفة، فسيكتشف ما أخفاه مريدوه في نفوسهم.

وجد في إنصات الشيخ ما دفعه إلى استعادة كلمات المبتعدين: إذا كان الدين اختيار الأبوين في طفولة المرء، فإن الصوفية اختياره حين يدرك الوعي. رفض المريدون أن يبقيهم الخوف في الطريقة، ليس معنى الخوف أن يقتلنا الفزع، ليس لديه ما نأخذه إلا التخويف، كأن متعته رؤية الخوف في أعيننا، صرنا نخاف شيخ الطريقة أكثر مما نخاف الله.

تحولت الفرقة إلى فرق صغيرة، تعددت مسمياتها وأنواعها، كلها تسعى للوصول إلى الهدف الواحد المحدد، لكن المسالك تختلف. لكل طريقة طريقها التي تخصها. ثمة أصحاب السجاجيد وأتباع الطرق وسكان الزوايا والمريدون والدراويش والمجاذيب، كل من نظر إلى

نفسه هو شيخ، له مريدون وأوراد وأذكار. لم يعد حوله في الفرقة الأصلية سوى القلة من قدامى المريدين، هجر الباقون الطريقة، انضموا إلى طرق أخرى، لم يعد يتجاوز تأثيرُ كلماته جامع نصر الدين، تقتصر حضرته على الصحن الصغير، ما بين صلاتَي المغرب والعشاء.

راعه الظلام الذي حل فجأة.

كان مسعد قد أغلق النوافذ، فلم يعد إلا ضوء شاحب من ناحية الباب الخارجي. غاب الخادم في السواد، عاد وفي يده شمعة مضاءة.

سبق الشيخ إلى الباب الخارجي.

خلفت الخادم مسعد في حيرته، ونفذت إلى داخل الضريح.

أشفقت من التأثر الذي كسا ملامح ولي الله.

أعرف أن الشيخ أغلق ذهنه على ما تلقاه من سيرة الولي وعلمه، شغلته العبادة عن الإصغاء لكل ما يدور في الحضرة من دروس ومناقشات. أحاط نفسه بأسوار غير مرئية، لم ينفذ منها علم ولي الله ولا وعيه. فسر الشيخ الأمور على النحو الذي ارتآه فهمه. ضجر المريدون من قسوة عظاته، وسئموها.

قلت للشيخ عوض البابلي وأنا أتهيأ للمغادرة: إذا كان للناس حق عزل الحاكم الظالم، فمن حق المريدين أن يعزلوا الشيخ إن أساء التصرف.

– ابتعادهم عن شرع الله هو الذي ضيق أحوالهم.

– الله رحمن رحيم، لا يواجه عقابَه إلا من اتبع الشيطان.

لاحظت ضيقه، فاستطردت: عبادة الله بالاقتناع، وليس بكلمات التخويف.

ورمقته بنظرة غاضبة: نحن نحب الله لأننا نحبه، الكفار هم من تتجه إليهم عظات التخويف.

– العضو الذي يتيبَّس عن الطاعة ليس له — في عظة مولانا ابن عطاء الله — إلا البتر.

– القهر قد يؤخر قيام الثورة، لكنه يجعلها ضرورة!

وشى صوت الشيخ باستياء: خرج المصلون عن نصائحي وعظاتي.

– حفِّزهم على الإصغاء إليك.

– الطاعة واجبة لما يصدر عن الشيخ من نصائح وأوامر.

– ربما لم تحسن توصيل الكلمات؟

لاحظت في عينيه نظرة استرابة. أدركت مغزى النظرة، وما يدور في نفسه. همس بسحنة متغيرة: إذا لم يتعلم المريدون من شيخهم، فكيف يتعلمون إذن؟

– هل اقتصرَت مهمتك على التذكير بعذاب الآخرة؟

– نحن اليوم فوق الأرض ... غدًا تحت التراب، وما يعنيه من حساب الملكين وعذاب القبر.

وعالَج حشرجة في حلقه: إذا كانت المحن قدر المؤمنين، فإني أرضى بما قسمه الله لي.

شردتُ في المدى: أن يحبوا الشيخ أفضل من أن يخافوه!

– هم يحبون رسول الله، لكنهم لا يتبعون سنته.

– الله وحده هو الذي يعلم ما في الصدور!

سكت، استحثثته بإيماءة على مواصلة الكلام.

غمغم من بين أسنانه: كيف يريدون الجنة وينحرفون عن طريقها؟

قلت وأنا ألتفت إلى الطريق: أرى أن الديناصورات لم تنقرض بعد!

٩

أول ما لفتني في الجامع خلوُّه من مئذنة. أوسط الأبواب الثلاثة يؤدي إلى ضريح ولي الله ياقوت بن عبد الله، ياقوت العرش في تسمية الصوفية. الشيخ سعد الخضري يستند إلى المقصورة المربعة، تعلوها قبة هائلة. غزل العنكبوت نسيجه في الزوايا والأركان وأفاريز السقف.

فاعلم أن الولاية ليست في الألقاب والمسميات، ولا كثرة المريدين والأتباع، ولا الملبس الذي يضفي الهيبة، بل في التعامل مع الناس، والقدرة على التأثير فيهم.

أجمعَت المجالس التي ترددت إليها على أنه لا أحد يعرف ما الطريقة الياقوتية، ولا متى أُطلقَ عليها هذا الاسم، ولا كيف انضم إليها مريدوها، كما لا يعرف أحد أصل الشيخ يونس مجاور ولا فصله، ولا الظروف التي قَدِم بها إلى بحري.

حين قَدِم إلى الحي — للمرة الأولى — استقبله مشايخ الطريق ومريدوها، أكرموا وفادته، عُنوا بأمره، مهدوا له سبيل الإقامة. أنزلوه في نفوسهم منزلة رفيعة.

أخذ طريقته — حسب قوله — عن ولي الله ياقوت العرش، ياقوت بن عبد الله. زاره في المنام، أحاطه بسبحته الهائلة، أقعده، وضع عمامته على رأسه.

قال ياقوت العرش: سِر في طريقي، وليس من الضروري أن تسير في طريقتي.

لُقب العرش لأن قلبه كان — وظل — تحت العرش، وإن بقي جسده على الأرض، وحسب علمي فإنه يسمع أذان حَمَلة العرش. أقرب تلاميذ أبي العباس إليه، قام على خدمته طيلة حياته. وتتلمذ عليه ابن عطاء الله السكندري، بعد أن هجر أبو العباس دنيا الناس.

له مناقب معروفة بين الشاذلية. لم يترك مؤلفات مكتوبة، إنما هي نصائح وعظات، توزعت في دروسه داخل المساجد والزوايا.

اعتدت لقاءه بين العشرات من العلماء والفقهاء والمريدين، واظبوا على حضور جلساتي للوعظ والإرشاد بجامع العطارين.

التقيت في حضرته ولي الله شمس الدين بن اللبان، من أئمة الطريقة الشاذلية. ما أعرفه من محاسنه وصفاته الجميلة يفوق الحصر. تلقى عن ياقوت العرش، كما حضر دروسًا على يد أبي العباس.

جعله ياقوت العرش صهرًا للمرسي أبي العباس، ومن أقاربي. زوَّجه — لقربه منه — ابنته التي رُزق بها من حفيدتي مهجة.

زاد تقديري لابن اللبان حين أوصى — بعد وفاة زوجته — أن يُدفن تحت رجليها. الوصية نفسها لياقوت العرش — قبل أن يغادر الدنيا — بتوسيده تحت قدمَي مهجة. همه التعبير عن تعظيم المقام.

تبع خطوات شيخيه فيما تفرضه الصوفية على أهلها من تبحُّر في العلوم الشرعية، كالأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد، والنحو والصرف، والمعاني والبيان والبديع، والمنطق. حاكى من تتلمذ على أيديهم بأوراد وأذكار، كتبها، أو أملاها، ووجد ما قد يغنيه فيما خلفته من أحزاب.

دخلت من الباب المفضي إلى المقام، تعلوه عبارة «مقام سيدي ياقوت العرش».

السور المعدني يعلو بالكاد عن قامة إنسان، المصاحف متناثرة فوق المقام الخالي من الكسوة، المقام من الرخام، الحوائط رخامية، تعلوها أسماء الله الحسنى، وآيات القرآن، النجفات المدلاة بالأضواء والنقوش والزخارف والمقرنصات، السجاد الأحمر بنقوشه الزاهية، يجلس عليه المريدون والأتباع، يحيطون بدكة المبلغ، عليها الشيخ سعد الخضري.

صمت نصف الحلقة من حوله، إدراكًا بأنه يتابع سباحته في بحر النور المحمدي، يرى في كل شيء جانبًا داخليًّا، باطنيًّا، ويسلم وجهه لله، يعبده، ويرجو اليوم الآخر.

وسَّد إليه ولي الله ياقوت العرش الأمرَ، خاطبه في هاتف، فنسج على منواله، حرص على تتبع الإيماءات والاقتضاءات، قضى وأفتى، وروى، وحلم.

طالَب المصلين — عقب انتهاء صلاة العشاء — أن يظلوا في موضع الركوع. قال إنه صار منذ صباح يومه شيخًا للوقت، يتصرف بما يمليه فهمه وبصيرته في أحوال الناس.

غاب عن فهمه أني على معرفة بدرجات الأولياء، وحظ كل ولي من الكرامات وأفعال الخير.

الحال ومضة، ما يحدث في إصغاء أذنه لأصوات بعيدة، تغيب عن آذان المريدين. يرى — بعين البصيرة — ما يحدث في مواضع بعيدة. الومضة ينبض بها القلب، وتزول.

ربما الومضة في نداء يتناهى من موضع لا يُرى. الحال مقدمة للمقام، الرؤى والمشاهدات والاستشعارات، تندرج حتى تصبح مقامًا، مدخلًا لما يتضمنه من طمأنينة دائمة للقلب. المقامات تختلف بتعدد الفرق، هي أربعة في فرقة، وسبعة في ثانية، وتسعة في ثالثة، وتُقارب المائة في فرق أخرى، وهي بلا عدد محدد، ويشوبها الغموض في العديد من الفرق.

الرضا، كما تعلم، آخر المقامات.

قال الشيخ سعد الخضري إنه يستغرق — منذ سنوات — في مقام البقاء. أتاه الرسول في اليقظة لا في المنام، لقَّنه أوراد الطريقة. الشعور بالتماهي مع الذات الإلهية — سبحان الله العظيم — يملي عليه أفكاره وأقواله وتصرفاته. جعل العلاقة بينه وبين الله سرًّا مستغلقًا، لا يبوح به حتى للخواص من إخوانه.

جاوز في علمه — حسب قوله لمريديه — حد المعاني الظاهرة، فهو يكشف المعاني الباطنة التي يخص بها أهل الحقيقة، أهل العلم والمعرفة. أحاط علمه كل شيء، عرف أسرار الحروف والطلسمات، انتهت إليه جميع أحكام الدين من أصل وفروع. أرجع ما يقوله أو يفعله إلى إرادة الله، اختصه بما لم يهبه سواه من عباده، فني عن ذاته، فحصل على مقام الإحسان، يعبد الله كأنه يراه، خصه الله بما تفرد به قبلًا ولي الله ياقوت العرش؛ فالله أجاب على دعائه بأن يشفِّعه في كل من زار ضريحه، ويكتب له حجة وعمرة. خشي الناس زعمه علم الغيب، له حق القبض والبسط، الخفض والرفع، الإحياء والإماتة، التصرف في خلق الله.

إن واجهته مشكلة خلا إلى ربه بعيدًا عن الناس، لا يتردد على أضرحة الأولياء ولا مقاماتهم ولا شيوخ الطرق؛ حتى لا يتوكل على غير الله، يشاهد الملائكة وأرواح الأنبياء، يخاطبهم، يستمع إليهم، يشرحون ما غمض، يتلقى الواردات من اللوامع والبوارق واللوائح.

أذاع أعوانه أن الله اختصه بما يغيب عن بقية الخلق. الأئمة يعلمون ما لا يعلمه المريدون، ولا عامة الناس، ما ينتسب إلى دقائق الأشياء، والأسرار، يظل باب الاجتهاد مغلقًا، أو يوارَب، لمن تقل مكانته الروحية، ويُفتح على مصاريعه لفقه الأئمة، يشرحون، ويفسرون، ويستخرجون المخفي من الأسرار.

اعتاد المريدون صمته عما يشغله، لا يبوح بما في نفسه. إذا تحدث فإنه يكتفي بالكلمات التي لا تؤدي معنًى محددًا. يحرص على إيصال معنًى بأنه يستند إلى قوًى غامضة، ذات نفوذ. أذاعوا بين الناس أنه اطلع على اللوح المحفوظ.

أَلِف خواصُّه تطلُّعه إلى السماء، إلى الكواكب والنجوم، يتعرف فيها إلى ما مضى، وإلى الحاضر الذي يحيوَنه، وتوقعات المستقبل. لم يعد في الكون ما يخفى، كل شيء أمامه

مكشوف. هو على معرفة بما يجري في العوالم العلوية والسفلية. يجيد التخاطب مع الحيوان والنبات والجماد، يفك طلاسم تحيَّر أمامها الإنس والجان.

عند تهيؤ المريدين لمغادرة المسجد، فاجأهم الشيخ سعد الخضري بالقول إنه قد أَلِف في الليالي الأخيرة رؤية رسول الله في مبشرة. عرف الرسول حيرته في مسائل مهمة، فزاره، تلقى منه الشيخ ما أعانه على فهم الأمور في صورتها الصحيحة، وعلى السير في النهج القويم.

لا يعرف المريدون متى أسلم نفسه — وأسلمهم — إلى قياد الآخرين. جعل من الوجهاء وذوي المكانة والفضل في بحري مجلسًا للشورى، يبحثون شئون الطريقة، ما صدم المريدين أنه لم يعد الشيخ الذي يليق بالخلافة؛ يصدر القرارات والأوامر القاسية، يكتم أسراره حتى عن خواص مريديه، يرفض مقابلة المريدين والمحاسيب، يتسللون لمناقشته، يفاجئهم جلوسه مع الشيوخ في موضع التلميذ، يتلقى التعليمات من الأقطاب والعارفين والعلماء، يرد كل شيء إلى شيوخه، يرشدونه بتوجيهاتهم ونصائحهم إلى ما يعين الناس على تدبير الرزق، وقضاء الحاجات. ربما همس الهاتف في أذنه بكلمات لا يحسن تأملها، يرددها أمام مريديه.

لزم طريق أئمته وشيوخه. أسلم نفسه لنصائحهم وتوجيهاتهم، يتكلم بما يضعونه على لسانه، لا يبدل ولا يحور، لا يضيف ولا يحذف.

أدرك الناس خضوعه الأعمى لأساتذته. يقر بالتسليم الكامل للأشياخ، وعدم الاعتراض. يسيطرون عليه، يحكمون الطريقة. جاوزوا ما كان الناس يتصورونه من دور له في الفتيا والشورى والقضاء بأحكام الشرع.

لاحظ الشيخ الخضري — أو لاحظ أساتذته — تعاظُم الفِرق الأخرى.

حذر من تداعي أتباع الفرق من دون سبب ولا مكروه، يُظهِرون السلاح، ويجاهرون بالعداء، شرط على مريديه عدم الجلوس إلى شيخ آخر، أو الانتماء إلى طريقة أخرى، العهد صلة يملك الشيخ فصمها وحده.

العهد بين الشيخ والمريد يُلزِم المريد بشيخه، وبالطريقة، لا يقصد شيخًا آخر غير شيخه الذي أخذ العهد عليه، يلتزم طاعته، ولا يبوح بالسر، ولا يلتفت إلى طرق أخرى. المريد بين شيخين كالمرأة بين رجلين.

قال المريد مرعي أبو الفرج في نبرة هامسة: أعلم أن من يحترم شيوخ الوقت هو الذي يأخذ عنهم جميعًا، ويفيد من علمهم.

قال الشيخ الخضري: من سأل أستاذه «لمَ» لا يفلح أبدًا.

وأضمر انفعاله بابتسامة شاحبة: المريد الصالح لا يجادل.
واهتزت بالانفعال لحيته البيضاء الكثة.
– أحسِن الإنصات لما يُلقَى عليك، أو فارِقنا بإحسان.
قال المريد: ما قاله زميلنا لا يستحق اللوم!
قال الشيخ ليحسم الأمر: حين يختار المرء شيخه، فهو يلغي اختيار نفسه.

أحب سكينة الحسامدية. هي أول امرأة — غير أمه وأخواته — يحبها في حياته. أخذته الصوفية، فلم يفطن إلى سواها.

هل قاده صوتها إلى ما لم يفطن إليه طيلة حياته؟

تملكته مشاعر جديدة، لم يعرفها من قبل. لاحظ في نفسه كثرة تذكُّر سكينة، وذكر اسمها، استعادة كلمات الإنشاد والابتهالات والتسابيح، يفسرها بما يعكس معاناته، تذكره بلقاء، لحظات استماع، خلوة يشاركه في صمتها طيف الحسامدية. تيقظت في نفسه مشاعر غائبة، أو أنها لم تكن موجودة، اضطرم قلبه بانفعالات المحب، ملك عليه حبها كل قلبه، لا يشغله إلا التفكير فيها، يترامى إلى سمعه في وجوده بين مريديه وخلوِّه إلى نفسه أصداءُ إنشادها، والدق على الدفوف، والنفخ في المزمار، والضرب على العود.

لم تعد نفسه تنشغل — بغير العبادة — إلا بها، يهيم قلبه عند ذكر اسمها، يلوح له الطيف، فيحاول إبعاده، التخلص منه، باستعادة ما غاب عن باله، أو بافتعال حوار مع خواصه ومريديه، يتردد — بما قد يُضعِف مكانته الروحية — على أمكنة إنشادها.

نفض رأسه بالسؤال: هل أحب المرأة، أو أحب صوتها؟

لم يعد يشغله إلا أن يكون بالقرب منها، يتبعها في الموالد والسرادقات وحفلات الإنشاد في ساحات بحري.

لو أنها وافقت فستُتيح لروحه كل ما كانت تصبو إليه في الدنيا، منَّى قلبَه بموافقتها على عرضه بالزواج. اطمأن — بمكانته — إلى قبولها، يرفعها معه إلى مقامه، يرقى وضعُها إلى درجة لا تخطر لها ببال، ربما وجدت في لزوم بيته ما يغنيها عن التنقل بين الموالد والخيام والسرادقات.

حدثته سكينة عن الله، أواها إلى قربه، آنسها بذكره، أوحشها من الأغيار. تبدلت حياتها من اللحظة التي خاطبها هاتف المرسي، لم تعد المرأة التي تَقصُر نفسها على الإنشاد، ثمة لوامع، بوارق، لوامح، ومضت في خاطرها، أحست بقربها من السلطان. عزفت عن مباهج الدنيا وملذاتها، أعرضت عن غير الله، أقبلت عليه بوجدانها وعقلها، شغلت اللسان بالذكر،

والقلب بالتفكر. شغلتها الروحانيات عن المحسوسات، صفت النفس، أشرقت الروح، ما تمتلكه من حب يفوق الحب الإنساني، لا تقيده قيود الحس، ولا تجرفه شهوات النفس.

فاعلم أن المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والفعل متحصنًا بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته. من أحب الله، وأحب الله فقط، تمت ولايته، والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته.

جعلت سكينة حبها لله خالصًا، تهمل ما يوزِّع حبها، فهي تَقصُره على الذات الإلهية وحدها.

الحب الإلهي مطلق الصفاء والنقاء والطهر، لا يُقاس إليه حب العلاقات الحسية، والشوائب التي تتطلب التطهر. استغنت عن الإشارات والإيماءات والتعبير بالأداء التمثيلي، هي من أهل المحبة القلبية، تسامت بحبها، تجاوزت الوجود الحسي إلى ما وراءه، إلى ما هو أسمى وأرقى من المشاعر الطارئة.

– ما تتكلم عنه هو حب حسي.

وران تكسُّر في صوتها: هذا هو حب الشهوة الوقتية.

وامتلأ وجهها بالحيرة: كيف يفكر المرء في أسفل جسده، بينما قلبه مشغول بالعبادة؟!

لم يكن السؤال قد خطر حتى تلك اللحظة على باله.

غالب ما لم يتصوره.

– الزواج حلال.

حدجته بنظرة أسًى: ماذا عن أم عيالك؟

وهو يغالب الارتباك: أحل الله الزواج بأربع.

شردت فيما لم يتبينه: امتلأ قلبي وفاض بحب محبوبي، لا موضع في القلب لسواه.

– هذا كلام إنشاد.

– بل هو كلام مَن فهمَت معاني إنشادها.

ورمقته بنظرة غاضبة: لماذا تصر على تذكر أنك رجل وأني امرأة؟!

امتلأت نفسه بالحسرة على رفضها. لم يتصور أنها تغلب مكانتها الدنيوية على مكانته الروحية.

عاود عرضه.

أعد نفسه لما قد تواجهه به. أزمع أن يأخذ نفسه بما يعانيه المحبون، تتيقظ في نفسه مشاعر غائبة، أو أنها لم تكن موجودة، تتفجر الأشواق والعذابات.

فاجأه تخليها عن السفور، أسدلت على رأسها ووجهها، ما لا يبين إلا عن ثقبين تطل منهما عيناها. اندفع نحوها بعاطفة لم يقوَ على مغالبتها.

اخترقته بنظرة غاضبة: قلبي ملك خالقي.

– هذا حلال، ولا زهد في الحلال.

– هل تطمع في شيء يمتلكه سواك؟!

فطن إلى أنها ليست معنية بما يقول، المعنى الذي تريد توصيله هو ما يشغلها. غاظه أنها جهلت قدرها حين أرادت شغل نفسها بما يشغل السالكين والواصلين وأهل الكشف. أَنِف لنفسه من ذل الخضوع لحبها، حب لا يجد المقابل في استجابتها الظاهرة. زل لسانه بما ندم على نطقه: مثلك كثيرات في كازينوهات الكورنيش.

لم تُعنَ بالرد عليه، ولا التفتت ناحيته، كأنها لم تسمع ما قاله.

أدرك أنه أساء القول.

حاول أن يعوض غيابها من حياته باستحضار طيفها، تجسد المخيلة صورتها الحقيقية، أو التي يتمناها، يستغني بها عن الدنيا. تعدَّد صحوه من منامه، بعد أن رآها في أجمل صورة، كلَّمته بما لم يذكره، أو اكتفت بطلتها التي وسعت الكون.

زاد من ألمه اعتزامها الرحيل إلى الحسامدة، خلصت من دنياها وآخرتها، لم يعد لها غاية إلا لقاء الحبيب.

أذنتُ له — بعد أن عرف أني أعرف — فحكى عن الجمال البشري الذي اجتذبه إليها؛ القوام الفارع، والوجه الرائق السمرة، والعينان السوداوان، الواسعتان، المحددتان بالكحل، والأنف الدقيق، والشفتان الرقيقتان كورقتَي وردة، والشعر الأسود المسدل على الكتفين. إن ابتسمت عَمُقت الغمازتان في خديها.

تلفَّت حوله بارتباك: هل كنتُ أكلم نفسي؟!

حجبتُ الهاتف؛ حتى لا أزيد في ارتباكه.

وهو يحني رأسه فوق صدره: ماذا لو أني لم أكن أكلم نفسي؟!

لم أشر ولو بإيماءة إلى ما يعرف أني أعرفه. كتمتُ رفض السيدة الحسامدية كلماته، حتى لا أسيء — ولو بيني وبين نفسي — إلى مكانته بين أهل العلم. أحزن للطبيب الذي ينهى مرضاه عما يفعله.

قلت: أراك تصدر القرارات، ثم تتنصل مما قد تنطوي عليه من أخطاء، بدعوى أنك تلجأ إلى رأي الجماعة.

في نبرة معتذرة: هذا صحيح، لكنني أتحمل تبعات القرار بعد أن أصدره!
– تعتبر كل معارضة لك نوعًا من التمرد؟
– رأي الجماعة شورى، القرار لمن يتحمل نتائجه.
– فارقٌ بين القرار الذي يخص الفرد، والذي يخص الجماعة.
– الولي الحقيقي لا يستحي من كراماته.
اتجهت نظرتي إلى عنكبوت توسط النسيج الذي صنعه في زاوية القبة.
– أنت تطلب رأي الجماعة الصغرى، فلا تظلم الجماعة الكبرى بقرار الفرد!

١٠

سرتُ ناحية ارتجاج الجدران بإنشاد البردة والأدعية والابتهالات وهبد الأقدام. حلقة الذكر الهائلة داخل صحن جامع ولي الله البوصيري ذي القباب الخمس. يلحق المريدون من الباب المفتوح، قبل أن يشير الرسيم بيده، أغلق المريدون باب القاعة، وقف المريدون صفين وسط القاعة، هدأت المناقشات، وساد الصمت، الذكر استيلاء على القلب والنفس والروح. نهى عن أداء الذكر بالرقص، ذلك ما لا يليق بجلال الذات العلية، ولا بآداب الطريق الصوفي. بدءوا التحرك على إيقاع تصفيق الرسيم بيديه، يتماوج من حولهم تراقُص ضوء النجفة الهائلة المتدلية من السقف.

قبل بدء الحضرة، يُرش الماء على جانب الساحة الملاصق لجدار الجامع، يُبسَط الحصير، يتقاطر المريدون، ترافقهم الابتهالات والدعوات وإيقاع النايات والطبول والدفوف.

البداية هادئة، يطرق المنشد على العكاز الحديدي، ينظِّم رنينُه الأداء، إلى جانب إيقاع التصفيق، يتدرج الإيقاع من البطيء إلى السريع، يعلو الإيقاع، يزداد التطوح والإنشاد والهتاف، يبلغ الذروة التي تغيب فيها النفس، فتذهل عن الدنيا، تأخذهم الذروة إلى حضرة الله تعالى، الجذبة والسكينة والهدوء وصفاء الأسرار وشرح الصدور وضياء القلوب، لا يفيقون منها إلا إذا لامسهم أحد، ينتبهون، ينفضون أجسادهم ورءوسهم، يستجيبون لإشارته بتصاعد الأداء من البطء إلى السرعة، فالميل إلى البطء، حتى الاسترخاء، والسكون تمامًا.

كان لبعض متعلمي عصره مؤاخذاتهم على حياته الشخصية والوظيفية، عابوا عليه من العبارات ما يصعب فهمه، متاهات متعرجة متشابكة من الغوامض التي يحار فيها المرء. يذكر المتصوفة بردته، وامتداحه الصوفية، وثناءه على إخلاصهم في التقرب إلى الله.

تعددت الروايات عن باعث تسمية البردة.

قيل إنه نظمها استشفاعًا بها إلى الله، حتى تعافيه من الفالج. من يَزُره رسول الله في منامه، فهو قد زاره بالفعل. قال البوصيري إنه بعد أن نظم قصيدته، زاره الرسول في منامه، ومسح بيده الكريمة عليه، وخلع عليه بردته الشريفة، فعُوفي من فالج عجز الأطباء عن علاجه. هو قد رأى رسول الله، لم يكن حلمًا ولا ما شابه، مسح الرسول على وجه البوصيري، وألقى عليه بردة. صحا الرجل من نومه، فحدث الشفاء من الفالج.

قيل إن البوصيري عجز — في المنام — عن تكملة بيت في القصيدة، فأكمله النبي. قيلت روايات أخرى كثيرة، لا يشغلني اختلافها. من ادعى واقعة تُنسب إلى خير الخلق، فهو من يتحمل حقيقة ما ادعى.

أجد في قوله الشعر اكتمالًا لقول ابن عطاء الله في النثر، هما تلميذان لأبي العباس المرسي.

استمعت في العديد من الحضرات إلى بردة البوصيري، الكواكب الدرية في مدح خير البرية. تكرر استماعي لها، فثبتت في ذاكرتي.

لم أجد فيما رواه البوصيري عن ظروفه الوظيفية والأسرية ما يباعد بينه وبين زهد الصوفية. الصوفي بشر يعيش كما يعيش البشر، ينتقد مرءوسيه وزملاءه، ويشكو من قلة الرزق، ويسعد ويحزن ويغضب. يشحب ذلك كله في ضوء بردته التي رفعها إلى مقام النبي الكريم، صارت نبضًا لما يصعب حصره من الإنشاد والحضرات وحلقات الذكر. أجاوز رواية إصابته بالفالج، واستشفاعه لله بقصيدة كي يعافيه. رأى النبي في نومه، مسح على وجهه بيده، وألقى عليه بردة، فانتبه من النوم. أجاوز كذلك رواية تُرجع التسمية إلى عجز البوصيري عن تكملة بيت في القصيدة. زاره الرسول، وأكمل النصف الثاني من البيت. أجاوز روايات أخرى كثيرة.

البردة كما تعلم ليست هي قصيدة المديح الوحيدة للبوصيري. سبقتها قصائد، وضعت الشيخ في قائمة شعراء المديح، لكن قصيدة «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» ذاب في أشعتها ما سبق للبوصيري من قصائد، وما صدر عن الشعراء الآخرين. إنها البردة التي عُقدت من أجلها الدروس — بتوالي السنين — في المساجد والزوايا والحضرات والسرادقات وحلقات الذكر، كثرت فيها اجتهادات البحث عن المعاني، وإعراب المفردات، والمعارضة والتشطير والتخميس، ومرادفات المدائح والنبوية.

أجد في البردة ما يُحسب للصوفية. أذكر قول الشهاب ابن حجر: إن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة، لكفاه فخرًا.

بلغني من أخبار حسونة عبد الدايم ما حفزني للقائه.

رقيت الدرجات الرخامية إلى الباب الرئيس، المطل على المينا الشرقية، الكورنيش، أفق البحر، الحديقة الصغيرة، قضبان الترام في سيرها ما بين المنشية ورأس التين.

الدرجات الثلاث ترفع إيوان القبلة عن مستوى الصحن. خطوات مشيتها في الطرقة المغطاة بظلة، حتى ضريح الشيخ البوصيري، حجرة مربعة الجوانب، تعلوها قبة زُينت في زواياها بمقرنصات.

أطلت الوقوف أمام الضريح لقراءة الفاتحة.

سكتت الدنيا حين رفع سيد تهامي شومته، وهوى بها على كتف الفتوة جودة بلال.

وظيفته تلقي الضربات. الفتوة يضرب فقط. لاحظ أن الفتوة يضرب بتكاسل، يعتمد على المساعدين. زهق منه، أحاطه بذراعيه، وعصره حتى صعَّب عليه التنفس، ثم رفعه إلى أعلى، وطرحه على الأرض، ووقف على صدره. تهيأ لتلقي الضربات. فوجئ أن المساعدين عبروا بنظرات تأييد.

عرف أن أتباع جودة بلال كانوا يخافونه على أنفسهم، ويكرهونه في نفوسهم، كان سريع الانتقام من أية بادرة شك، أو سوء نية. عانَوا التوقع أن يحدث شيء ما، بأيديهم أو بواسطة آخرين، يصبح بعده الحال على غير ما هو عليه.

رفض جودة بلال أن يكون سيد تهامي خليفته في دنيا الفتونة. الفتوة يوجه الضربات، يهوي على الخصم بما يؤذيه، أو يؤلمه، أو يقتله. يتلقى المساعدون الضربات التي تريده، يواجهونهم بسواعد تحمي الوجوه والرءوس، أو تقاطع العصي والشوم.

كان حسونة عبد الدايم يضمر إعجابًا حقيقيًّا بالفتوة جودة بلال، لكنه لم يكن يملك إلا الإشفاق على سيد تهامي. بضاعته قوته الجسدية، وعمله تلقي الضربات حين يخوض الفتوة معاركه. لا يأذن له — ولو استطاع — رفع الشومة في مواجهة الخصم، تعلو الشوم والعصي، تتحرك الأيدي والأقدام، تختلط الهتافات والصيحات والحشرجات وانبثاق الدم. يبتعد سيد تهامي عن جسد الخصم، حتى إن لاحت ثغرة ينفذ بالشومة، ذلك شغل الفتوة، هو من تتجه ضرباته إلى خصمه. يظل الفتوة واقفًا، أو يدور حول نفسه، مرتين، أو ثلاثًا، ثم يضرب بالشومة في موضع يقصده من الجسد.

اعتاد الناس رؤية يده على اليد الأخرى، على المقبض العاجي للعصا التي غرس طرفها في الرمل، لا يفلتها. الضرب عمل الفتوة ضد الفتوات الآخرين، عمل المساعدين تلقي الضربات التي يحسن تفاديها، إلى جانب إبلاغ الإنذارات، وتلقي الإتاوات، ومتابعة تحركات الفتوات الآخرين، وكذلك تحركات الشرطة.

رفض ما قاله الريس هلال مرشدي في مجلسه بالحلقة، من أن مساعدي كل فتوة هم العامل الأهم في إبرازه، وتقديمه، وفرض سطوته. بدونهم تزول سيطرة كل فتوة على الحي أو مجموعة الأحياء، تتحول معاركه مع فتوات الأحياء الأخرى إلى خناقات فردية، دون أن يجاوز تأثيرها الفتوات أنفسهم.

قال حسونة إن المساعدين خُلقوا للهامش في حياة الفتوات، وهو ما يجب أن يظلوا فيه. الفتونة ليست قوة جسدية فحسب، إنما هي إرادة وذكاء وقوة شخصية وحسن قيادة للآخرين.

كان الناس يهملون أصله، ونسبه، وسيرته. رُوي أنه كان مساعدًا لغنيم فتوة اللبان، يتلقى عنه الضربات. استقل من يومها بنفسه، عمل لحساب تجار في مينا البصل، يخوض المعارك لصالحهم، ثم خرج إلى الناس من بيته ذات صباح وقد تغير سلوكه وكلماته، قال إنه تاب عما سلف من حياته، وأزمع سلوك سبيل الاستقامة.

لم يكن له أعداء، ولا يعاني ميولًا شاذة، ولا تردد على الأماكن المشبوهة، أوقاته خارج البيت يمضيها في زاوية الأعرج، يفرغ لتلاوة القرآن، أو يقرأ في الكتب الدينية.

رآه الناس في شبابه يفتش في بقايا الطعام الملقاة جانب الطريق؛ بقايا بطيخ وكسرات خبز وثمار فاكهة أصابها العطن. عمل حمالًا في الدائرة الجمركية، وشارك في عمليات تهريب البضائع والنقود. ثم عمل في بيع العقارات وشرائها، والمشاركة والمضاربة والمقايضة، يشتري البيوت القديمة، يُجري عليها ما تطلبه من ترميمات وتحسينات، تبدو كالجديدة، فيعرضها للبيع.

لاحظ جودة بلال قوته الجسدية، وعافيته الواضحة. وجد فيه قدرة على الاحتمال والمراوغة والاختفاء والتسلل والتنكر والابتكار والحيلة والدهاء.

ضمه إلى أعوانه، شرط عليه أن يقتصر فعله على تلقي الضربات، وألا يبدأ العراك.

حين غيَّب السجن جودة بلال، لاختراق مطواته بطن عيد أبي ركبة الريس بالحلقة، اختفى حسونة عبد الدايم، وبقية أعوان الفتوة، من حياة الناس. تأثروا كثيرًا، بدت لهم الطريق شاقة، أو مسدودة، فتلاشَوا، لا حس لهم ولا خبر.

في ظهر جمعة، شارك حسونة عبد الدايم الناس صلاة الجمعة في أبي العباس. أعلن للنظرات المتسائلة أنه تتلمذ — في سنِي اختفائه — على الشيخ محرم عقيل. رقَّاه الشيخ من مرتبة المريد إلى السالك والولي والبدل والوتد، فالقطب في قمة الهرم. كان الشيخ قد أسن، ومال إلى القعود والراحة.

حين دخل حضرة الشيخ في ذلك اليوم في زاوية الأعرج، أفسح له إلى جانبه، وقال: أنت الآن في مرتبة الأئمة.

زكَّى الشيخ أهلية حسونة عبد الدايم في أن يؤخذ منه الطريق، أذن له الشيخ بالتسليك، فعرف أنه بلغ مرتبة الخلافة، صار شيخًا لعموم الطريقة.

لم يتيقن الناس — في روايته — ما إذا كانت الترقية من أسرار الطريقة، أم أنها قرار من الشيخ. أهمل الهمسات أنه لم يدخل في حياته زاوية الأعرج، وأن أكثر تردده — قبل اختفائه — على الساحة الخلاء، جوار قصر ثقافة الأنفوشي، يتدرب على فنون القتال، لا يلجأ إلى معلم، وإنما يترك للشومة في يده أذية خصومه، وتفادي الضربات.

أهمل صحبة أبناء الدنيا، حتى الزهاد والعلماء والصالحين. خاف أن يعطلوا رياضته الروحية.

لم يكن يبلغ مريديه ولا زواره بما يقوله حين يستغرق في خلوته، للطريقة أسرارها التي لا تنكشف إلا لمن يخلص في محبته. يخشى أن تُفشَى أسرار الطريقة، فيسيء مريدو الفرق الأخرى فهمها، تواجه الطريقة من العداء ما يعوقها عن أداء شعائرها. هو يشتري ولا يبيع، ذلك ما تعلمه في حضرة الشيخ ماجد حسنين.

– إذا تخليت عن الأسرار، فأنت تتخلى عن حياتك!

ويهمس من بين أسنانه: لا تأمن حتى لنفسك!

لنشر الطريقة؛ أمر حسونة عبد الدايم مريديه أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير عقب كل صلاة، تعلو أصواتهم فتبلغ أسماع أهل بحري والأحياء المجاورة.

شاع بين الناس ما روج له أتباعه أنه موعود بأمره. أذاعوا ما نسبه إلى نفسه؛ صار إمامًا لأهل الذوق والعشق، له كرامات ورياضات، من فوق مجلسه قنديل دون أسلاك، يُشيع في المكان ضوءًا كضوء النهار، له سحابة يركبها في صيف وشتاء، تحمله إلى أي مكان، هو دائم الطيران والتحليق في الفضاء.

قال وهو يرنو إلى لوحة تمثل الهلالي يشهر سيفه: إن القوة هي الفعل الوحيد الذي تحترمه الفرق الأخرى.

توزَّع المريدون في ميادين بحري وشوارعه وحواريه وأزقَّته، وداخل الدكاكين والقهاوي، حتى البيوت كبسوها، وطرقوا الأبواب، وصعدوا الأسطح. منعوا الأفعال المحرمة، وأسكتوا الأصوات التي تنطق بالشر. حذروا من أن ترك الشيخ إلى شيخ آخر، فرارًا من القسوة، قد يصبح مجرد استبدال طاغية بمن هو أقل طغيانًا. الشيخ واسطة بين الله والبشر، هو يفعل ما فيه خير مريديه وخير الناس، حتى ما يغمض عنهم من تصرفاته،

عليهم أن يثقوا بصحته، يعظهم بكلمات السماء، يدفعهم إلى ترك الهوى، وإنفاق أوقاتهم في المجاهدة والمحاسبة.

صادر الناس في أموالهم. أكثر أتباعه من أخذ الإتاوات والهدايا من التجار وأهل الحرف والوجهاء. كبسوا على البيوت والدكاكين، نهبوا ما بها من متاع وأموال. ارتكبوا المنكر والفجور، تمادَوا على ما لم يؤمروا به. أملى أوامره بإدراك أنه لن يخضع للمساءلة، حتى لو ضاق الناس بأفعاله.

صار نطق اسمه باعثًا لتحريك مشاعر الخوف في نفوس أهل بحري.

إذا ارتجفت العصا في يده، فطن إلى الخطر الذي يتهدده. يرفع العصا اتقاءً، أو يهتف في أتباعه للغوث.

تعددت الشكايات إلى الشيخ صلاح البابلي، إمام جامع المرسي أبي العباس، ما يُنزِله بهم مريدو حسونة عبد الدايم — أبرِّئ منه صفة الولي — من المظالم، حل بأهل بحري ما يصعب احتماله، يخلي أعوانه الطريق أمامه، يطوحون الشوم، يبسطون الأيدي، ربما لجئوا إلى الزغد واللكم.

ضج الناس من أفعال أتباعه، أخذوا عليهم فقدان الاتزان والتصرفات العابثة، يقرصون البنات في أثدائهن، يقذفون المارة بالشتائم، يعطون ظهورهم إلى الجدران، ويبولون.

علت الصرخات والاستغاثات بما لم يعرفه بحري، ولا طرأ على ناسه، كثرت اعتداءات أعوانه من ضرب بالشوم والخناجر، وقبضات الأيدي والركلات. اتخذهم جباةً لما يطلبه من إتاوات وهدايا، لقاء حماية الناس من أخطار يجد أنها تهددهم. تنطلق الصيحة، فتمتد الأيدي إلى السكاكين والسيوف والهراوات. يحرض أعوانه على الخروج ليلًا، يسهل الصيد خلف ساتر الظلمة، يتم الأمر في سرية وهدوء، في النهار يسهل انكشاف من نفَّذ فعل التخلص من الخصم، أو استلابه ما يملكه.

بدا شخصًا آخر لم يعرفه أهل بحري من قبل.

عاود الناس شكاياتهم إلى الشيخ صلاح البابلي، تكلموا عما يُنزِله بهم أعوانه من المظالم، يأخذون لأنفسهم ما يضعه الزوار في صندوق النذور. تعددت — بأوامره — حوادث السبي والقتل والسلب والنهب. أساء السيرة مع أرباب الأسر وأصحاب المحالِّ والقهاوي، توقعوا الخير فيه. لكنه جاوز التمتع بالحياة إلى الإسراف في التمتع بها. قصَر حياته على النهل من أطايب العيش، وعلى الميل إلى الترف في مأكله ومشربه وملبسه.

يرفض أن يقبِّل الناس يده، وإن أذن لهم بتقبيل طرف ثوبه. إلى جواره نوع مفتخر من العطور، يرشه الخادم على ثيابه فور أن يخلو مجلسه من الزوار.

رُوي أنه حَصور لا يأتي النساء، وأن كل ما يذيعه أتباعه عنه من اختراعه، وضعه في أفواه الأتباع، يرددونه في المجالس، يضيفون إليه من مخيلاتهم ما يصنع صورة للفحولة. نصحه الطبيب بدواء، أورثه حدة في طبعه.

الحياة مستحيلة في ظل الأمر والنهي والعقوبات القاسية.

أخرج مطواة من جيب سيالته. قرَّب نصلها الحاد من عين مصطفى نافع، تاجر الروبابكيا في شارع سوق السمك القديم.

– أنا مثل الليل، لا أحد يفر من ظلمتي!

من يخطئ يركع تحت قدمَي حسونة عبد الدايم، يتذلل، يطلب المغفرة. أحاط عنقه بذراع محيي الدين أبي قصيصة، صاحب إسطبل السيالة، طواه بقسوة حتى أحس بالاختناق، واصل الضغط حتى انبجس الدم من أنف أبي قصيصة وفمه. لكمه بآخر قوته في بطنه، أطلق محيي الدين صرخة مكتومة وهو يحاول تفادي السقوط، عاجله بضربة أخذته إلى الأرض. أمر بنتف حاجبَي بندقة محسب، العلاف بشارع الميدان، ولحيته. تبدَّلت صورته فأنكره الناس. نفض ما بيديه، تابع إعداد فطيرة محشوة بالسم، اختبرها في قطة تموء تحت قدميه، فماتت لتوِّها. حين أُصيبَ ريس الصيادين طلحة عبد الحافظ بزكام، قدَّم له حسونة سَعوطًا من سوق الترك، دس فيه سمًّا قاتلًا، خنق طلحة بمجرد تشممه، أفقده حياته.

لاذ المريدون بالصمت والسكينة.

جعل الفتوة نفسه فوق أي مساءلة، كلماته لا تحاول الإقناع، لكنها أوامر ترفض الأخذ والرد، تصر على التلبية، هو يقضي، وعلى المريدين أن ينفذوا، لا إرادة لهم، يوجههم كيفما شاء، عليهم السمع والطاعة. يخضعون لتعاليمه وأوامره، لا يتصرفون بغير ما يريد، يخشَون تغيُّر نفسه، يسترضونه بالوسيلة التي توافق مزاجه.

لما تناهت إليه أصداء الهمسات الرافضة حرص أن يخفي مكان إقامته، ويتنقل بين أماكن لا تخطر في بال أحد.

هجر بيته في شارع الشاروني القريب من السيالة، أقام فيه ثلاثة من كبار أتباعه؛ حلمي المليجي، وصفر حسب النبي، وشمعة شلباية، يراقبون الأحوال في بحري، يبادرون بما يجب فعله في مواجهة التصرفات والتوقعات.

أنبل الأفعال حين يفتدي المرء الجماعة.

رأى طه رزيق — بائع الصحف أول صفر باشا — في المنام أنه يصعد درجات مئذنة بالغة الارتفاع. لما بلغ بسطتها النهائية، وضع راحتيه حول وجهه، وعلا صوته بالأذان.

الشيخ حمدون شكر الله، شيخ الطريقة الوفائية، فسَّر الحلم بالمكانة التي سيرقى إليها رزيق حتى يبلغ درجة القطب، يُقبِل الناس على مجالسه وعظاته، بما يؤلف فرقة من الصوفية، لها شعاراتها وطقوسها التي تختلف عما أَلِفه الناس في الفرق الأخرى.

لم يعرف الناس عن رزيق أي صلة بطريقة ما، ولا أظهر ميلًا لأحد الشيوخ، أو عُني بالتلمذة على يديه. أبدى رأيًا فيما يتوالى على بحري من الخلافات والفتن والمعارك والدماء.

نشأَت — في ظل التشاحن بين الطريقتين — طرق وفرق أخرى، لها أتباعها ومناصروها، مالوا إلى الانحراف عن طريق الشرع، وسلك مسالك البدع، واقتراف ما نهى الله من أذية الناس.

الفتوة تعبير صوفي، لكن فتوة حسونة عبد الدايم لا تنتسب إلى هذا المعنى.

أخذ طه رزيق عظم خطر الفتوة. سعى الناس لخطب وده، واسترضائه، والانصياع، وتلبية احتياجات أتباعه، ووافق شيخ الصيادين مرعي أبو البركات على اقترانه بنوال، ابنته التلميذة في الإعدادية، ثالثة لزوجتَيه.

راع رزيق ما وصلت إليه الأحوال، معارك لا شأن لها باختلافات الفرق، من له رأي يعلنه، تُقابِله آراء مغايرة.

فِعل الشيخ هو الأخذ بيد مريده إلى الترقي بين المقامات، وليس إلى النزول في الطريق لأذية خلق الله.

لماذا لا تنشغل الفرق بنصرة دين الله، بدلًا من التشاحن في أمور الدنيا؟

أزمع أن يفعل ما يعيد كل شيء إلى أصله.

توقع قتله، لكنه خاف أن يحدث الأمر قبل أن يعلن ما بنفسه.

إن كان الأذى في سبيل كلمة الحق، فلا بأس!

يريد لموته أن يكون نذيرًا لما يجري، يتنبه الناس، يفيقون، يعيدون رؤية المنمنمات؛ كيف صارت إلى ما يجب إنكاره؟!

انقطع عن الصلاة في الجماعة، وإن أزمع أن ينادي بمخالفة حسونة عبد الدايم وبقية الشيوخ على رءوس المصلين. يُقدِم على الفعل في صلاة الجمعة، في لحظة رفع الأذان الثاني. لم يُبلغ إخوانه بما ينتويه، ولم يسكن إلى مشاورتهم. خشي أن يعجِّل أتباع الفتوات بقتله،

فلا يتيحوا له النداء بمخالفة الشيوخ. جلس أول درجات منبر الجامع، في منتصف الدَّرج تمامًا. اكتفى الإمام بنظرة التحير في المصلين.

هتف رزيق في ملامح الاستياء: لن أترك موضعي حتى يستقيم الحال.

مزق الغضب صوته، فداخلته حشرجة: اخترت طاعة الله عن طاعة غيره.

وفي لهجة متحدية، وذراعاه متقاطعتان فوق صدره: لا شيخ لي! ما سوى الله باطل!

واتخذ هيئة من يريد أن يدافع عن نفسه.

بدأ قوله: «أفعل هذا من أجلكم»، كأنه إشارة البدء لاندفاع المصلين في اتجاهه، انفرطت الدائرة من حوله، بعد انبثاق الدم من جسده الساكن على درجات المنبر.

كانت محكمة الحصيرة في الأنفوشي تحل مشكلات الناس دون أن يلجئوا إلى العنف، ولا إلى الفتوات والشرطة، ولا إلى المحاكم العادية. يجلس الحكماء من أهل بحري والمتقاضون فوق حُصر من المبسوطة أمام دكاكين سوق الحصرية وغيرها، يقدمها التجار سعيًا لصفاء النفس، فلا تنشغل بغير فاطر السموات والأرض، يطرحون النزاعات والخصومات، يُعنَون بتقريب التباعد، وبلوغ الكلمة السواء.

محكمة الحصيرة مثل اخترعه الناس لمشابهة محكمة الديوان التي ترأسها السيدة أم العواجز، يشاركها تدارسَ أحوال الناس ومشكلاتهم أقطابُ الصوفية الكبار؛ البدوي والرفاعي والدسوقي والجيلاني. الاختلاف في محاولة الناس أن يحلوا مشكلات دنياهم، يرفعونها — بعد أن يستعصي الحل — إلى مقام الديوان.

استفزني تملُّك النفوس فكرة الخلاص من شيخ الوقت. لعلي أتجه إلى غابة، أعرف ما ينتظرني من وحوش يجب أن أصارعها.

يا عزيز، يا غني، يا رحيم، يا كريم، يا واسع، يا عليم، يا ذا الفضل العظيم، اجعلني عندك دائمًا، وبك قائمًا، ومن غيرك سالمًا، وفي حبك هائمًا، وبعظمتك عالمًا، وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إليَّ منك، ولا تحجبني بك عنك، إنك على كل شيء قدير.

١١

خلفت ميدان الأئمة ورائي، زحام الباعة، وزوار المرسي، والدراويش، وحلقات الذكر على رصيف البوصيري. رقيت الدحديرة خلف جامع المرسي، تطل عليها زاوية الست مدورة.

في نهاية السور الحجري، رنوت بنظرة إلى المتبقي من صورة الميدان، تستعيد زيارتي أضرحة الخمسة عشر وليًّا وجوامع؛ أبو العباس وياقوت العرش وأبو الفتح ونصر الدين.

ملت ناحية شارع ابن طيفور الضيق، المتسربل بالرمادية، ومنه إلى شارع الموازيني، طالَعني الجامع إلى يسار الميدان الصغير. محل الخردوات ذو الفاترينة الزجاجية يتوسط واجهة الميدان، وعلى الجانبين محالُّ الخضر والجزارة والبقالة، ومطاعم الفول والطعمية والمكرونة، وعلى الأرصفة مشنات الباعة السريحة، وكومات الزبالة.

بعد أن أزيلت مدرسة البوصيري، لم يعد جدارها الخلفي الملاصق للجامع يحدد سعة الميدان، تداخلت البنايات إلى شوارع الكناني والموازيني وأبي العباس والحجاري. تحول الميدان إلى سوق يشغي بالباعة والبضائع المكومة خارج الدكاكين.

فاعلم أن الفقيه ليس من فقأ الحجاب عين قلبه، إنما الفقيه من فهم سر الإيجاد، وأنه ما أوجده الله تعالى إلا لطاعته، ولا خلقه إلا لخدمته. إذا فهم هذا كان هذا التفقه منه سببًا لزهده في الدنيا، وإقباله على الآخرة، وإهماله لحظوظ نفسه، واشتغاله بحقوق سيده وخالقه، مفكرًا في الميعاد، قائمًا بالاستعداد، حريصًا على جمع الزاد، ذاكرًا ليوم التناد.

أشفقت على الشيخ محمد عبد الهادي. بطرف ثوبه ينفض الغبار من الجدران والمنبر، ودكة المبلغ، والسور المعدني المحيط بمقام الولي علي الموازيني. ألقى الناس حمولهم عليه، يشاركهم تحلق المقام بالأدعية والابتهالات والهتاف والصياح والصراخ، ما زاد من إيمانهم بالشيخ، تعلقهم به، أن الأمنيات والدعوات والشفاعات — بفضل بركاته — تحولت إلى تجسيدات، يفيدون منها.

لماذا حل الصمت؟

أوكل إلى النقباء ترديد دروسه على المريدين. ينقل عنهم من المريدين أئمة بيوت الله، لا يعطي الشيخ من وقته للمريدين، ولا طالبي الشفاعة والنَّصَفة. لا يعنيه إلا أن يظل في حاله، لا شأن لأحد بخلوته وعبادته، ولا بحياته. يجد في انشغاله بالعبادة ما يصرفه عن كل ما حوله.

يذكِّرني بالخليفة الشهيد علي بن أبي طالب، حين وجد في إيمان الغلاة بألوهيته ما دفعه إلى الأمر بإحراقهم في النار. قالوا — والنيران تشوي جلودهم — الآن نحن على يقين أنك أنت الله!

فاعلم أن التوبة أول طريق السالك، قوامها النية والإخلاص والمحاسبة والمراجعة، السالك الصادق في تعبده لا يطلب الكرامات ولا المكاشفات ولا المراتب. لا يشغله إلا أن يحصل على طمأنينة القلب بإعطاء الله حق عبادته. يرفض مراتب الولاية، ارتقاء درجات التحقق بالكرامة، تلقي النور الإلهي، كشف ما في ملكوت السماء، الطواف بالبيت الحرام دون انتقال، الإخبار بالغيب والمجهول وما تخفي الصدور، استرداد ما بدا اختفاؤه منهيًّا، الأكل من قليل الطعام فلا ينتهي، أكل الفاكهة في غير أوانها، ما ينتسب إلى الكرامات.

الحديقة الصغيرة — قبالة ميدان المرسي أبي العباس — تتوسطها نافورة من الرخام، تنبجس منها المياه، وحول محيطها الدائري أرضية من الحصى الملون. فرش على النجيل منديلًا محلاويًّا، بسط عليه قطع جبن قريش، وفحل بصل، وأرغفة خبز، راح يأكل في بطء متلذذًا.

سُمي «محمد» لأن أمه رأت في المنام — قبل ولادته — ولي الله أبا العباس يدعوها لأن تُطلِق اسم خير الخلق على المولود المرتقب.

تابعت انتقال جثمان ولي الله علي الموازيني من طرف المدينة إلى موضعه الحالي، بالقرب من جامع المرسي أبي العباس.

بدأ حياته قارئًا للقرآن في مقابر العمود. يعيش على ما يقدمه له زوار مقابر العامود من الأقراص والمنين والفاكهة، رحمة ونورًا على أرواح الموتى.

تعلم صنعة تجليد الكتب على يد أبيه. لما ضاق بها، وقف خلف طاولة خشبية بثلاث أرجل، يبيع المصاحف الصغيرة ودلائل الخيرات وبردة البوصيري ومناقب الصالحين والسبح والبخور.

في قراءة: سأل إبراهيم بن أدهم أحد مريديه: أتحب أن تكون الله وليًّا؟

قال المريد: نعم.

قال ابن أدهم: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرِّغ نفسك الله تعالى.

ذلك ما فعله الشيخ محمد عبد الهادي.

كان يخرج من بيته في حارة ابن ماء السماء قبل رفع أذان الظهر، يلحق الصلاة — في أبي العباس — في موعدها، ثم يهبط من الدحديرة الخلفية إلى شارع أبي العباس، يقف خلف الطاولة، يتركها لأداء صلاتَي العصر والمغرب في جامع الموازيني القريب، ثم يصلي العشاء في جامع أبي العباس، ومنه يعود إلى البيت.

أعرف أنه بلغ مرتبة الولاية، وإن لم يظهر بواطنه على ظاهره. عين ما يظهره هو عين ما يبطنه، عين اليقين، ونوره، وحقه. قرأ تراجم أهل الزهد والعبادة والإرادة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ومن تبعهم من الأئمة الأربعة وأئمة السلف والشيوخ والمحدثين. ألف — في داخله — تصاعد إشراقات مفاجئة. أخذ نفسه بالتستر والاستخفاء وراء سلوك حياة الناس من سير في الأسواق، وبيع وشراء، كثر اتصاله بالمترددين على الجوامع والمساجد والزوايا، واللائذين بالمقامات والأضرحة. سقى الماء احتسابًا في شارع الميدان. وكان يعظ في سيره أمام المحال التجارية والوكالات والمقاهي. ربما اتجه بكلماته إلى المارة، ما يقوله يجاوز الحكمة، أو النصيحة، إلى فعل يُقبِل المريدون على أدائه بنفوس مستريحة. يعظ كل جماعة بقدر مراتبهم العلمية، ومنازلهم، وإلمامهم بأمور الدين والدنيا، وما تسعه عقولهم من الفهم، من بلغ درجة النقيب يختلف عن الدرجات التالية. حتى الإنسان العادي الذي يعرف القليل من علوم الظواهر، فهو لا يملك الكلام بكلام أهل المعرفة. وكان شديد التأثر، وعيناه سريعتا الاستجابة، حتى أثَّر الدمع — لكثرة بكائه — في عينيه.

خلَّف أبوه أموالًا هائلة وعقارات وأراضي، تتيح له العيش في بحبوحة، فلم يأخذ منها شيئًا. أصر أن يكون إنفاقه وعيشه من تعبه وحُر ماله. ثابر على المشاركة في مجالس العلم. يتردد على المساجد، يستمع إلى القرآن والحديث والفقه والرأي، وحكايات الصوفية وكراماتهم ومكاشفاتهم، وعلومهم اللدنية، يزور أضرحة الأولياء ومقاماتهم، يكلم الولي كأنهما يتحاوران.

دعا نفسه إلى الله، قاوم ترددها وتخاذلها، وانشغالها بالمغريات. صار من أهل الجذبة. عرف المعاني الروحية، فانتقلت حياته من حال إلى حال. استوفى أولى المراحل، ارتحل بعدها إلى ما يليها، جعل الدنيا في يده، لا في قلبه، فهي غير دائمة ولا مقيمة. انصرف إلى المجاهدة، يحاسب نفسه في الدنيا اتقاء الحساب في الآخرة، يتجنب وسوسة الشيطان، يذوق حلاوة العبادات، يسمو عن الدنيا، يحلق في السماء، يتلقى ما يرد على قلبه من الأسرار الروحانية.

فني عن ذاته وإرادته، عمد إلى المجاهدة والرياضة، الخلوة والصوم والصمت والتأمل والتفكر وطلب العبرة، والسهر حتى يُؤذَّن للفجر. ظل بالإرادة الإلهية، يتعبد طيلة الليل، يصلي الصبح بوضوء العشاء، يتجرد من كل ما عدا الله. رؤاه تعرج في السموات العلا، يتمتع بالمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة، يرجع إلى المرسي فيما يواجهه من مشكلات تهم الطريقة، يُعنَى بمشورة السلطان، يحرص على تنفيذها.

يرفض الملابس الثمينة، ولا يرتدي مرقعة الصوفية. لباسه مما يرتديه سواد الناس في أعمالهم. سجادته الصغيرة لا تفارق إبطه. يُمضي وقت ما بين أداء الصلوات في تنقية نجيل الحديقة الصغيرة، المطلَّة على البحر، وعلى الميدان.

لا يختار الموضع الذي يلتقي فيه مريديه. قعوده في الساحة العلوية المفضية إلى صحن أبي العباس، الحديقة المقابلة لمستشفى الأطفال، امتدادات ردم الخلاء أيمن خليج الأنفوشي، بين فراغات المراكب في ورش القزق، الساحة الترابية أمام صالون الحاج محمد سليط، قهوة فاروق بشارع إسماعيل صبري، وقهاوي الحي الأخرى، وقعدات الشاطئ، يتبادل الأحاديث مع الصيادين وغازلي الشباك وفريشة الحلقة، حتى الساحة وسط قلعة قايتباي، استغرقه فيها الأخذ والرد حول قضايا الدين والدنيا. يقرأ كتبًا سطورها الاستغاثات والأحزاب والأوراد، يستعيد — وهو ينظر إلى أرفف الكتب في الطابق العلوي المطل على صحن أبي العباس — ما يتذكره من الوقائع، يتكلم عن أحداث التاريخ وعِبَره. يجيد الإنصات، حتى للكلمات الهامسة، يهمل النظرات المستغربة لتدخله، يواصل الكلام بما يعكس متابعته. يحفز التلاميذ على الإفصاح عن مشاعرهم وأفكارهم. يبدو كأنه قد حصن نفسه ضد الانفعالات، لا ابتسامة، ولا تكشيرة، وصوته لا يعلو عن الهمس، يجيل الفكرة في ذهنه قبل أن ينطق بها، يحثُّ مريديه على طلب حقائق العزيمة، لا يأخذون بظاهر الأمور، دون أن يتعمقوا في المعرفة، ويُعنَوا بأن يضيفوا إليها. يتمنى لو أن الله منحه ما خص به ابن عطاء الله، هو الوحيد من شيوخ الشاذلية الذي ألف الكتب، وأقبل مريدو الطريقة، وغيرها من الطرق، على قراءة كتبه، يتنسمون الأنفاس الروحية، ويأنسون في طاعة الله.

لم تجتذبني الطريقة، شعاراتها وأعلامها وبيارقها، بقدر ما وجدت في شخص الشيخ ما يرضي قناعاتي. أسعدني قيامه بالأوراد — وسط مريديه — على طريقة الشاذلية، الورد كما تعلم يُقال في أوقات النهار، وأوقات الليل، أما الحزب ففي كل الأوقات.

قرَّبه من الناس أنه لا يتخذ حُجابًا، ولا صبية يمنعونهم لقاءه، ولا يستتر عن أحد، وأنه يغيث الملهوف، ويرشد الضال، وينبِّه الغافل، ويؤمن الخائف، ويؤنس المستوحش،

ويؤثر بما في يديه على فقراء المسلمين، أحبوه، فامتثلوا لنصائحه وأوامره، واجتنبوا ما نهى عنه.

لا يجلس في موضع الصدارة. هو دومًا في دائرة المحيطين من أهل الطريق بسلطان الإسكندرية المرسي أبي العباس. ربما اختار لقعدته بسطة الباب الرئيس للجامع، قلبه متلفت إلى المسجد، لا يحب الابتعاد عنه، يجد فيه روح القرابة، وحلاوة الخدمة. يكثر من التلفت، في اطمئنان إلى غياب نظرات الناس، وإن حرص على نعمة الصداقة، وأنس الأخوة والمحبة، يسأل الدعاء من أصحابه، ومن المترددين على مجلسه. يمتلك قدرة مذهلة في أن يشعر بما يشعر به محدثه، حتى لو حرص على إخفاء ما بداخله.

على كتفيه عباءة بنية أقرب إلى «البشت»، لا يبدلها بتغير الجو. يده لا تفارق المسبحة، حتى دون أن يجري بإصبعيه على حباتها. حرص أن تكون الطريقة قليلة المريدين، وذات انتشار محدود، لكنه عميق. يؤمن بشعاراتها من ينتسبون إلى الطرق الأخرى، يقيم العهد مع الجدد من مريديه أمام مقام المرسي، يشهد السلطان على القسم، فلا يخرج المريد عن عهده، يعتزم إطاعة أوامر الشيخ، والسير على نهج الطريقة.

يلزم الحضرة، يجلس في الدائرة التي تقضي الساعات في العظات وتلاوة القرآن والذكر والإنشاد والتسبيح، وعدد من المريدين يُعنَون بتوزيع الأقمشة والمشروبات والحلوى، وحراسة الأحذية، ومنع الممارسات الخطرة عند أداء الطقوس. لا يشارك في المناقشات، ولا يبوح بما يشغله، طبيعته تميل إلى الاستغراق في التفكير، يكتفي بأن يجيب عن الأسئلة. إذا تكلم قال ما يرشد مريديه، يدلهم على آداب الطريق، يوجههم في السلوك، يحضهم على تجنب مزالق الشيطان، والنهي عن فعل ما يغضب الله ورسوله، والسير في أمور الناس على الطريق المستقيم. رفض أن تُسدَل الستائر على الطابق المخصص للنساء في جامع المرسي. المشربيات الضيقة الثقوب تكفي لدرء النظرات المتسللة.

قصَر عظاته — بالكلمات الطيبة — على أفعال الخير، وبالكلمات الناصحة، أو المحذرة، على الأفعال الشريرة، يراعي اتجاهها إلى متلقين متباينين العلم والفهم والوعي، فهو يستطرد، ويعيد، ويكرر ما قاله بكلمات تتسع بمساحة التلقي، تهمل مفرداته كلمات الحسد والحقد والفساد والكبر والعجب والفحش والظلم والقسوة والغلظة.

لماذا نقرن الفضائل بأضدادها؟

لماذا لا تقتصر مفرداتنا على العلم والعمل والتقدم والفتح، وغيرها من كلمات الخير؟

يحرص أن يضمِّن كلماته حكايات طريفة، أو مثيرة للانتباه، يتجه المريدون — بأعينهم واهتمامهم — إلى شفتَي الشيخ الطيب؛ يرهفون الآذان، يحرصون على ألا تفوتهم

كلمة واحدة من عظاته، يلتقطون كل كلمة، يتفهمون معانيها. حين يتجه إلى القبلة، فإنه يصرف اهتمامه عن كل شيء، عدا خضوعه لبارئه.

لا إله إلا الله هي بداية حضرة الذكر، الصلاة على النبي ﷺ، جامعة لذكر الله ورسوله، يتلوها ما يعيِّنه الشيخ من الأوراد والأحزاب، التدريج على الأذكار بحسب المقامات والأحوال، تعلو الأصوات بالأحزاب والأوراد والابتهالات والتسابيح.

يرفض الشيخ مصاحبة الآلات الموسيقية لأداء الذكر، يقتصر الإيقاع على الدف وتهليل الذاكرين، أو ينبثق إيقاع الذكر من داخله، فلا حاجة إلى مصاحبة أصوات موسيقية من أي نوع. يتدرج الرسيم من الرصد إلى الدوكا، فالسيكا، فالجهر كاه، ثم الحجاز والرهاوي والكردي والبياتي والصبا. ينتقل الذاكرون — بإيقاع تصفيق الرسيم — من نغمة إلى أخرى، يعهد إلى مريد برشِّ العطر والماء. حين يعلو الإيقاع، ويشتد الذكر، يستولي الوجد عليهم من الحال، فيغيبون عن أنفسهم.

تظل الحضرة قائمة، حتى يعلو صوت الرسيم بالقول: تذاكروا يا أحباب!

ربما قاد حلقات الذكر بنفسه بدلًا من الرسيم، يحذر الذاكرين من أن يجذب انتباهَهم شيء غير ما هم فيه، فالملائكة تشاركهم أداء الذكر، ينظم حركات الرءوس والأجساد بتصفيق اليدين، والعبارات المغناة.

تنفضُّ الحضرة.

ينصرف المريدون إلى بيوتهم، وقد غسل الله خواطرهم — بإرادة الله — من قلوبهم، كأنها أثواب نزعوها.

ألفت قدماه التردد على زيارة زاوية الست مدورة، وقراءة الفاتحة أمام ضريحها. أشرف بنفسه على تجديد الزاوية. من الصالح أن تبرز المرأة العفيفة للرجال، تخاطبهم، تتحدث إليهم، تسألهم وتجيب عن أسئلتهم، وإن وجد في إسدال النساء، وعلامة الصلاة على جبين الرجال، معنًى يطمئن إليه، أن يعرف الناس دينهم جيدًا فهو خير. فرض الله الصلاة خمس مرات كل يوم، للعبد أن يزيد على صلاة الفرض ما شاء من السنن والنوافل.

يلحظ إن كان المريد يضمر في نفسه ما يرفض البوح به. من يحرص على السرية والتكتم، فلا بد أنه يخفي ما يعرِّضه للمساءلة، المريد الذي يواجه اتهامًا في دينه أو دنياه، يقسم على المصحف أمام مقام سلطان الإسكندرية، ينجو بنفسه إن كان صادقًا، وإن كان كاذبًا، أو يرتكب الخطأ، فيرفض الاعتراف، أو حتى قبول مراجعة النفس، يلحقه الأذى في جسده.

ألزم نفسه بطلب رضا الله بالأعمال الصالحة، وألا يقول إلا الحق، ولا يخاف إلا من الله.

أخذ على القطب عبد القادر الجيلاني أنه ظل ثلاثين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله، خالق السموات والأرض. هو يرفض النظر إلى السماء بحثًا عن الله، الله ليس في السماء وحدها، الله في كل مكان، حتى في نفوسنا، في داخل كلٍّ منا. نجده فيما قد لا ننتبه إليه من الكلمات والإشارات والإيماءات.

– العرش الإلهي لا يقتصر وجوده على السماء، لكنه في الحياة من حولنا.

وتعلو نبرة صوته وهو يسترسل بالقول: إذا لم يكن الله في قلوبنا، فلن نجده في مكان آخر.

ويهز رأسه في هيئة الحسم: لو أننا أحسنَّا تأمُّل دواخلنا، فسنرى الله، يرعى ويراقب ويثيب ويحاسب.

همس المريد شامخ زلطة بأنه هجر فراش زوجته.

– لماذا؟

– تسيء معاملتي.

– نحن نقطف الوردة من الشجرة، نشمها، ثم نتركها للموت.

ومسح وجهه بباطن كفَّيه: لماذا لا نشم الرائحة الطيبة دون أذًى؟!

تهيأت لإبداء رأيي، لكنه استرسل في الكلام: أخشى أن تكرر مشكلة الزوج الذي أراد أن يعاقب زوجته، فخصى نفسه.

– لا إخصاء، معاملتها السيئة أفقدَتني الرغبة!

– ابحث عن وسيلة عقاب أخرى بدلًا من الهجر!

حدَج — بنظرة مشفقة — رجلًا لاذ بالصمت لصق الحائط، آخر صفوف القعود. ارتكب من الخطايا ما توهم استعصاءه على المغفرة.

– إذا لم ترتكب الذنب فلن تعرف الندم، ولن تطلب المغفرة.

استطرد وهو يخفض من صوته: لا بد للمرء أن يذنب حتى يستغفر عن ذنبه.

وهمس في نبرة مواسية: أنت لهذا تزور أضرحة الأولياء تطلب الشفاعة من الولي، والمغفرة من الله.

قال الرجل: ذنوبي كثيرة، فهل يغفر الله لي؟

– حين يطلب المرء مغفرة الله فلا بد أنه ارتكب ما يدعوه إلى هذا الطلب.

ونفض التراب من جبهته بتأثير السجود: خير الخطائين التوابون. هذا قول الله.

قصده الناس من أحياء الإسكندرية، ومن المدن الأخرى؛ يستفتونه فيما غمض عنهم من أمور دينهم، يرفعون إليه مشكلات دنياهم.

أوصى حين وفاته أن يُصلَّى عليه في جامع المرسي، وتعدِّد الست الحسامدية ما أسداه له السلطان من التجليات والمشاهدات وتنسم الأنفاس الروحية.

الابتسامة التي ملأت وجهه، غيبت ما كان في ذهني، كل ما فيه يختلف عن الصورة الموجودة في ذاكرتي.

حدست من إسناد أذنه إلى راحته، وميله ناحيتي بأعلى صدره؛ أنه يعاني ضعفًا في السمع، لا يستمع جيدًا إلا إذا اقترب محدثه من أذنه.

كأنه يبذل جهدًا للبوح بما في نفسه: أذكر قولي لكم: اعرف الله وكن كيف شئت.

– أذكر كذلك أني قلت: استعذ بالله من شر الدنيا إن أقبلت، ومن شرها إن أنفقت، ومن شرها إن أمسكت.

وهو يرنو إلى موضع غير محدد في أفق البحر: أحيانًا أسأل نفسي: هل كانت الطريق التي سلكتها صحيحة؟

– في الحياة أشياء تستحق معاناتنا.

سرَت في صوته بحة: هل أنا عند الله كما يظن الناس؟

– لا تتسول حكم الناس على فعلك، أنت خير من يحكم على صحة ما تفعله.

– إن أنصت إلى الناس فيزداد حزني.

حدست أنه يفتش — وهو مغمض العينين — عن الكلمات.

– لا أملك سوى الكلام، والناس يحتاجون الفعل.

سكتَ، نظرتُ إليه بنظرة مستحثَّة.

قال: يقين الناس أنهم يحيَون بمناقب الأولياء، فما يستطيع الأولياء أن يفعلوا لصالح الناس؟

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيني وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، فرِّق بيني وبين هم الدنيا وهم الآخرة، ونُب عني في أمرهما، واجعل همي أنت، واملأ قلبي بمحبتك، وبهجة أنوارك، وخشِّع قلبي بسلطان عظمتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

١٢

اخترقت شارع حافظ باشا الموصل بين الميدان وشارع الحجاري. فرحت لانتقال ولي الله داود بن باخلا إلى رحاب الله، وإن اكتفيت من جنازته — لانشغالي بأمور المتصوفة، وأمور المسلمين — بالتعرف ممن حضروا غسله، وشاركوا في جنازته، إلى ما جرى من مكاشفات هو بها خليق. الشيخ داود خليفتي الخامس في الطريقة، عقب توسدي أرض حميثرا. أوصى قبل وفاته ألا يوضَع على خشبة الغسل، فالملائكة ستغسِّله. لما أحس دنوَّ الموت، دعا مريديه إلى مفارقته، وإفساح الطريق لملائكة يرفعونه إلى السموات العلا. تضوع ماء الغسل برائحة أطيب من المسك.

رُوي أن نعشه انسلت من الجنازة، طار فوق رءوس المشيعين، وفوق الشوارع، والواقفين داخل الدكاكين، وعلى الأرصفة، والمطلِّين من النوافذ والشرفات. تعالت أصوات المريدين والأتباع بالآيات والبشارات والأدعية.

أتعبت الجنازة حاملي الخشبة والمشيعين، أصرت على التنقل بين أضرحة الحي ومقاماته ومزاراته، لما أعيت الناسَ الحيلُ، أخلَوا للنعش طريقه، أجبر المشيعين على السير في هرولة إلى ميدان المنشية، ومنه إلى طريق الكورنيش، ناحية الأنفوشي ورأس التين. زاحم المشيعين أعدادٌ هائلة من النسوة، تعالت أصواتهن بالبكاء والصراخ والوجد واللطم والزغاريد، والتقنع بالنيلة، وتمزيق الثياب.

مضت الجنازة حتى استقر النعش على أرض خلاء، ملاصقة لسور قلعة قايتباي.

تجلت في أفق البحر هالةٌ واسعة من النور، انبثقت فيها أشجار كثيفة الأغصان والأوراق. تعالت — مختلطةً — أصواتُ طيور لا يراها الناس.

أعرف أن ولي الله داود أوصى — قبل أن تدركه الوفاة — أن يُدفن في مدخل البوغاز، جاءه في المنام من أخبره عن المدخل إلى الجنة، هو الموضع الذي دُفن فيه، جثمان الميت لا يبلى، تصعد روحه إلى السماء بلا حساب ولا عقاب، يدخل الجنة.

فاض النور الإلهي، تلاوة القرآن والمقامات والقبض والقضاء والبسط والفقد والوجد والأغنيات العلوية والقصائد والموشحات والابتهالات. اختفت المرئيات تمامًا، ترامى الفضاء الفسيح، علا عن كل شيء، بدت الرؤيا غير الرؤيا، أَلَقَ الصفاء والبساطة والسكينة، تضوعت عطور أنهار الجنة، وما على ضفتيها من أشجار، علت دقات الطبول والصنوج والمزاهر والدفوف والصفافير والشعارات والأعلام والرايات والزينات.

لما انطوت حياة القطب، وجد المريدون فيما تعلمه تلميذه نعمان عبد الشكور من الخليفة الراحل أنه يأخذ موضع الصدارة في حضرته. أخلص في خدمة ولي الله، وخدمة مريديه وزواره. خصَّه الولي بمكاشفات لا تُتاح إلا للأقطاب. لا بد للطريقة من شيخ يرهص لها بأفكاره، ويغذيها بأوراده وأذكاره وأدعيته، ويرسم لها الطريق الصحيحة للتقرب إلى الله.

ناقش مع المريدين والمحاسيب ما ينبغي فعله.

استصوبوا الرأي أن يأخذوا جثمان القطب من حيث دُفن بمقابر العامود إلى المكان الذي اختاره، حرصوا أن يتم الأمر ليلًا، حتى لا يلقَوا متاعب في استخراج الجثمان من القبر الذي أُودعَ فيه، وتوسيده قبرًا يجاور جامع المرسي.

عميت أبصار سكان البنايات المطلة على أبي العباس من ناحية الدحديرة، وعلى الطريق من داخل أسوار العامود إلى الجامع. حتى الناس المقيمون في المقابر لم يشهدوا عملية انتقال الجثمان إلى موضعه الجديد.

رُوي أن سيارتَي نقل ألقتا الردم في البحر، ناحية ضريح ولي الله داود. تملَّك الذهول أعين الناس والسيارتان — واحدة وراء الأخرى — تغوصان خلف الردم في مياه البحر.

سرب المريدون اعتقادًا أن من يلامس الضريح بإيذاء، كتلويثه، أو الكتابة عليه، يعرِّض نفسه للإصابة بالصمم، أو العمى، أو الشلل، وقد تلحقه شهقة الموت.

أضاف إلى اعتقاد الناس ما صاحب غرق السيارتين من اهتزازات عنيفة لأغصان شجرة وحيدة في طرف الساحة، دون أن يشي الجو بعاصفة، أو ريح.

نُسب ولي الله — في روايات الأتباع والمريدين — إلى أصله، اتصل الورثة بالغصن، امتد لبقية الأغصان، فالشجرة الهائلة فروعها الدوحة المحمدية، ويمثل الحسن بن علي جذرها.

قيلت حكايات عن تجليات داخلته — في سيره المنفرد — على رمال الشاطئ، لم يكن قد فطن إليها، ولا إلى المعاني التي تنبض بها. يؤثر الخروج إلى البحر بمفرده، يتمشى على الساحل، يرنو إلى السماء في تقلباتها، تحليق أسراب الطير، امتدادات الأفق. يشرد في تأملات، تتوالى على قلبه النفحات والإشارات والمكاشفات والاستغراقات وأنوار الفتح. تعلو عن الحس، فتفتح في روحه الأسرار العلوية.

رُوي عن طيرانه في الجو، غوصه إلى أعماق البحر، سيره على الأمواج، اختراقه الجدران، قراءته المقدر والمكتوب.

عندما يقف على مرتفع في الشاطئ، فإن الأسماك تتكاثر تحت قدميه، تغري الصيادين بإلقاء طراحاتهم وجرافاتهم.

عُرف عنه القدرة على التنقل من مكان إلى آخر في لحظة كالومضة، يرتفع في الهواء، يواصل ارتفاعه، يعلو، ويعلو حتى تخفيه السماء، يسير على المياه فلا تبتل قدماه. يغطس في الموج، لا يصعد حتى ينسى الناس أمره، لا يخشَون على حياته، يعرفون أنه ينزل في ضيافة مخلوقات البحر، يتنقل بين الصخور والكهوف والأعشاب، كأنه واحد من أهل الأعماق، يفهم لغة الأسماك، ومخلوقات البحر، يتبادل معها الكلام. يأخذ العهود، تحمي المخلوقات من يريد حمايته، وتمنع أذاها عن البشر. يصعد من المياه دون أن تبتل ملابسه.

استغاثت به امرأة غاص ولدها في العميق، ولم يعد. وقف على صخرة في طرف الساحل. نظر ناحية نزول الولد، قرأ ما لم تفهمه الناس من التعاويذ، علا هتاف الولد من فوق الموج.

ألف الصيادون والبحارة، وقاطنو البيوت المطلة على البحر — بعد رحيله — أنه إذا ثار البحر، فهبَّت العواصف، واقتحمت النوات ما يصادفها، لجئوا إلى طلب الغوث من ولي الله، ينذرون له النذور، يمسِّدون كسوة المقام، يذكِّرونه بوعده — في حياته — أن يظل راعيًا لهم بعد مفارقة الدنيا.

كان الشيخ شعبان الأنصاري حلقة في سلسة الخلفاء الذين تعاقبوا، شغلتهم أحوال الطريقة، وعُنوا باستمرارها. تمنى الناس أن تظل بركات ولي الله — بعد رحيله — ممتدة في خلفائه. توقع المريدون خيرًا بتوليه أمر المشيخة. عُرضت عليه من العلماء والفقهاء والمتنورين من وجهاء الحي، فاعتذر عن قبولها. قال إنها ليست له، ولا يرى نفسه فيها. لم تخطر الحياة في باله إلى ما بعد وفاة شيخ الوقت. كان على يقين أنه سيرحل قبله، رتب الأمور في ذهنه على هذا النحو. ثم وافق على إلحاح الشيوخ والمريدين بإقامة حفل تنصيبه

في درجة الخليفة، أُعطيَ — في نهايته — إجازة الطريقة، شهادة مختومة بخاتم المجلس الأعلى للطرق الصوفية.

وعد الشيخ شعبان أن يُعنَى بإصلاح ما أفسده الشيوخ السابقون، يضيف — بما تسعفه قدراته — إلى الطريقة، ويجدد أداءها، ويحافظ على أذكارها وأورادها. يخرج عليها الكثير من المتصوفة في المجاهدة والخلوة.

أخذ على الطريقة — في الجلسة نفسها — ما لحقها من حيف، بكثرة الدخلاء والأدعياء وناقصي الهمة. حين تغلب العشوائية، وتتلاشى الفواصل بين الصواب والخطأ، فإنها تنتهي إلى الزيغ والضلال.

رفض المحاكاة، أزمع أن يبدأ من حيث انتهى سابقوه، له سيرته الشخصية والروحية التي تختلف عن سير خلفاء الأولياء في بحري، تميزه بمناقب وكرامات.

عهد إلى نفسه شأن الإمامة، وما يتصل بها، عُني بتوسيع مقام الولي، وفرشه بالسجاد، وطلاء حوائطه، وبدل باللمبات الصغيرة، الموزعة على الجدران، نجفة هائلة، تدلت من أوسط السقف، وحرص على موعد مولده، يحضره المريدون والأتباع، تزايدوا فبلغوا الآلاف.

درءًا للريبة والظِّنة، قصَر صلته بالمسجد على إمامة المصلين، وإلقاء العظات، لا يقبل الصدقات ولا الزكوات، لها صندوق نذور موضعه على باب المسجد، يعود عائده إلى العاملين في المسجد.

جعل التفاضل بين خدم المسجد على مدى نجاحهم في ترغيب الزوار لوضع المال في صندوق النذور، إلى جانب هدايا الطعام والكسوة.

دسَّ شيخ الصيادين يعقوب أبو الوفا مبلغًا في صندوق النذور، شفاعة ألا يتكرر إجهاض زوجه قبل الولادة. أضاف وعدًا بذبح عجل، وتقديم السمك المقلي والفول النابت لمريدي الولي وزائريه. بعد عملية جراحية لمحيي الدين السلاب، المعلم بالقزق، ألزمَته القعود على كرسي متحرك؛ صار يحرص على وضع النذور بيده في الصندوق، لا يعهد بها إلى موظفيه، يَقصُر عملهم على العناية بممتلكاته من أراضٍ وعقارات ووكالات في بحري والعطارين. دسُّ النذور بيده داخل الصندوق يعكس الرجاء أن يعفو الله عن سيئاته. لم يضع النقود في الصندوق الْتماسًا لبركة المنبر والجدران والأعمدة والحصير، الضائقة دفعته إلى الْتماس الغوث من ولي الله صاحب المقام، النذر وسيلة كي يتشفع له الولي، فيفك الله كربته.

صندوق النذور بجوار المقام يعني قدرة الولي على تحقيق الكرامات، وعلى تحقيق ما يتمناه الناس. يقصدون المقام للتبرك والدعاء، وتقديم النذور، وطلب النصفة والمدد.

الولي هو صاحب الكرامات وليس صندوق النذور، الصندوق سبيل إلى تحقيق البرء والشفاء والنصفة والمدد. أموال النذور منحة ولي الله لخدمه ومريديه. إذا احتاج الجامع إلى إصلاح وترميمات، فتلك مسئولية الوزارة، للإنفاق على الجوامع والزوايا والأضرحة والمقامات بنوده الثابتة في ميزانية الوزارة.

حدث الكثير من المشكلات عند توزيع حصيلة الصندوق، كلٌّ ينسب إلى نفسه فضلًا يهبه الحق في أن يحصل زيادة عن الآخرين.

أمر الشيخ شعبان الأنصاري بإعادة توزيع حصيلة صندوق النذور على العاملين في الجامع، ومريدي المرسي أبي العباس، حتى النذور العينية منعها، وأمر بإعادة توزيعها، ما كان يتسلمه خدم الجامع من الطير والحيوان والفاكهة واللحوم المذبوحة يُوزَّع على المتصوفة والدراويش.

سكت ذوو الأنصبة الضئيلة بمعنى الموافقة، أما من كانوا يحصلون على الأجر الأعلى، القارئ والمؤذن والمبلغ والخدم، فقد جاهروا بالرفض!

مضت أيام المولد دون أن تحدث زيادة في صندوق النذور. امتلأ الميدان قبالة الباب الرئيس بالآلاف من مريدي الفرق الصوفية، علت البيارق والأعلام والأشاير والأدعية والابتهالات والهتافات. أدرك الشيخ أن فاعلي الخير أشفقوا من ذهاب تبرعاتهم إلى غير وجهتها.

ناقش الأمر مع خدم الجامع. راعه أن المعلم عودة خفاجة، التاجر بشارع الميدان، استبدل بما كان يضعه في صندوق النذور أطعمة وملابس للأسر الفقيرة من أهل الحي.

عهد إلى نفسه حماية الصندوق من سرقات المغيرين، يتظاهرون بالطواف حول المقام، أو الوقوف أمامه، يحاكون الناس في أدعيتهم وابتهالاتهم، والْتماس الشفاعة والمدد، ربما كنسوا حول المقام، يشاهد الشيخ من موضعه ما يجري لحصيلة الصندوق من النذور، يعرف الفاعلين بأسمائهم، من زائري الجامع، أو من المحسوبين على صاحب المقام، يكتم الأسماء حتى لا يثير فضائح، أو يشوش على الطريقة. للشيخ طريقته — التي لا يدركها أحد — في الحصول على مال المسلمين، وسيلتهم لبلوغ ما يريدون. هدد بالعقاب الإلهي كل من يأذن لنفسه بالحصول على ما ليس من حقه، إن تردد في رد ما أخذ، فإن ولي الله سيأتيه في المنام يوبخه، يعنفه، يأمره بإعادة الحقوق إلى أصحابها.

ثار خلاف بين الشيخ شعبان وخدم المسجد، عاب كلٌّ على الآخر أنه يحاول أن يحصل على ما فوق حقه من أموال النذور.

الإمام هو المسئول عن الإنفاق على المسجد، يُعنَى بحصيلة صندوق النذور، تسلم من السرقات، ومن حصول من لا يستحق على ريعها، ينفق معظم ما تدره على احتياجات المسجد، بحساب وتدقيق، يتصرف في الوارد والمنصرف، إن أُهديَ له مال أو كساء فرَّقه عن آخره، لا يُبقي لنفسه شيئًا.

قال إن النذور ليست سبوبة، هي للإنفاق على المسجد، ما زاد يُوزَّع — بأنصبة متساوية — على العاملين. حتى مقيم الشعائر وعامل الإضاءة والشباك والنجار. حامل مفتاح المقصورة له حق الزيادة فيما يحصل عليه، بركة ولي الله تميزه، كما تميز القراء والزهاد والنساك والعباد، يشعر بالسمو الروحاني، يأخذ نفسه بالمحاسبة والمراقبة، يحب الدنيا بجسده، بأنفاسه الزائلة، من غير أن يعلق بها قلبه.

ارتاب الناس في حقيقة ما أظهره الشيخ من ميل إلى الزهد. أدركوا أن الرجل ليس من أهل الانجذاب والغيبة.

لم يعد الصندوق يُفتح — كما جرت العادة — كل ثلاثة أشهر. تناثرت همسات عن خزائن الأموال التي أودعها بيته في كفر الدوار.

فرض على الجميع أن يسلموا إليه كل ما في الصندوق من أموال، وكل ما نذره الناس من شموع وعجول وأغنام وطير، يحملها خدم المسجد إلى مزرعته القريبة من كفر الدوار.

ترك حمزة العطيفي الجامع مغضبًا بعد أن دس في صندوق النذور شكوى إلى محكمة الديوان، يطلب نصفتها من أحكام الشيخ الجائرة.

التقيته في حجرته المطلة على شارع الكناني، قبالة الطلل المتبقي من مدرسة البوصيري. الأرضية مغطاة بالسجاجيد الفارسية، والجدران عُلقَت عليها آيات من القرآن، وصور الكعبة والأقصى.

الدائرة السوداء الصغيرة — أوسط جبهته — تشي بكثرة السجود.

قال: النذور من مناقب الولي. تكثر بحصول المراد.

ورفَّت على شفتيه ابتسامة غامضة: من يضع في الصندوق نذرًا لا يشترط وجه إنفاقه.

– لأنه أسلم نفسه إلى التوكل!

– اطمأن إلى سلامة تصرفنا، ونحن بحول الله نحسن التصرف.

استعاد سرقة الخادم (صادق أبو حطب) حذاء المعلم عودة خفاجة في مغادرة الجامع، قال إنه أخطأ، فدسَّ قدميه في حذاء ليس له، لم يقتنع الشيخ بما رواه، شدد العقاب على سارقي المصلين في المساجد، سرقة المسجد هي سرقة لبيت الله، ومن يسرق الله فإن عقوبته لا بد أن تكون مغلَّظة.

وهو يضغط على الكلمات: نحن نمنح الفقراء ما يأذن دخل الصندوق من الإحسان والخيرات والصدقات.

وبطريقة من يريد أن يبدل مجرى الحديث: أنا لا أملك سوى مساحة الأرض التي بنيت فيها قبري!

قلت بنبرة مضمرة: أتمنى أن يأتي يوم نبحث عن مستحقي الزكاة فنجد أحوال الناس ميسورة!

١٣

خلفت الحجاري إلى شارع سليم البشري. امتد سيري إلى نهاية الشارع، ثم ملت ناحية اليسار في اتجاه جامع ولي الله عبد الرحمن بن هرمز بشارع رأس التين.

رقيت الدرجات إلى المسجد المعلق، الصحن مستطيل، يتوسط سقفه المرتفع نافذة صغيرة مربعة. ملتُ إلى يسار المحراب، في زاويته الجنوبية حجرة بها ضريح ولي الله عبد الرحمن بن هرمز، إلى جانبه ضريح باني المسجد، الحاج درويش أبو سن.

قرأت الفاتحة للولي، ولأبي سن الذي أوصى أن يُدفن إلى جواره.

فاعلم أنه ليس الشأن من تُطوى له الأرض، فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه. كما يدرك الأولياء والعارفون، فإن أدنى المقامات هو السير على الماء، والطير في الهواء، إلى غير ذلك مما يُنسب إلى الكرامات.

فرائض الله الظاهرة هي الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى البيت الحرام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وغيرها. أما الفرائض الباطنة فهي العلم بالله، والحب له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء منه، إلى غير ذلك.

الأولياء هم عباد الله الذين اصطفاهم لمعرفته، وخصَّهم بمحبته، وأتاح لهم من المكاشفات والكرامات والشطح ما يبين عن قربهم من حضرته. أنوار الأولياء لا كسوف لها ولا غروب.

ولي الله عبد الرحمن بن هرمز، أستاذ أساتذتنا من كبار العلماء والمتفقهين. تخرج على يديه عشرات العلماء في فقه الدين، والأصول، والتفسير، والعبادات، والسلوك، والأخلاق، وفقه اللغة، وأنساب العرب، وعلم الكلام، والتصوف، والفلسفة، والطوائف، والفرق.

منحه الله فرصة التلمذة على عدد كبير من الصحابة، أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس، صار أقرب تلاميذ أبي هريرة إليه، صحبه، وأخذ عنه، وروى عنه الحديث. آخر سنوات حياته قضاها في الإسكندرية، شغله التدريس ورواية الحديث. عرف الناس عن ولي الله سائر أموره وأحواله وأفعاله وأقواله، اطمأنوا إلى علمه، وحصيلته المعرفية، في علوم الدين والشريعة واللغة العربية والنحو. أذكر قول الإمام مالك إنه انقطع — في مشوار العلم — إلى الولي عبد الرحمن بن هرمز سبع سنين، لم يخلطه بغيره.

كل شيء كما ثبت في الذاكرة؛ الباب الخشبي الضخم زُين بمسامير من الحديد في هيئة دوائر متداخلة، السلالم الخشبية المتآكلة تصدر صريرًا تحت القدمين، ترقى إلى الطابق العلوي، القاعة التي جعلها الشيخ زين قمر الدين موضعًا لحضرته، يستقبل الخواص والمريدين وطالبي الحوائج والمشورة والنصيحة والعظة؛ عالية السقف، لها نافذة وحيدة، خشبية، تترامى منها أصوات الطريق.

انفراجة الباب أتاحت تسلل حزمة من أشعة الشمس، صنعت على أرضية الحجرة نثارات فضية ملتمعة.

طالت نظراتي إلى ما حولي، تريد استيعاب المكان.

توسطت القاعةَ مائدةٌ نحاسية مستديرة، وتناثرت لصق الجدران وسائد مزينة بالنقوش. لم يكن في المكان كراس ولا دولاب ولا طاولة بأي حجم، وإنما تبعثرت فيه الأغطية والوسائد والكتب والأوراق. زينت الجدران والأسقف بأشكال على هيئة أوراق نبات، ومربعات هندسية، وحروف متداخلة، ونقوش. المجامر المدلاة يتضوع منها شذا الند والمسك والصندل والعنبر.

فاعلم أن المرء إذا أظهر الله فيه ما اعتبره الناس من الكرامات زاد خوفه من الله، وخضوعه، واستكانته، وتذللهُ لم يدع الشيخ زين قمر الدين لنفسه كرامة، ورفض ما نسبه إليه أتباعه من الكرامات.

في نشوء الطريقة، عكف الشيخ على التعبد في الخلاء المواجه للبحر، لا يشغله المكان، وإن حرص على امتداده في الأفق.

أحسن اختيار المكان، بالقرب من بحري، أو أنه في قلب الحي. يسهل بلوغه على مريديه ومحاسيبه، لطريقته طقوسها التي تميزها، على مريديه أداؤها، أخلصوا فيها.

سأل المريد عرفة الزايط: لماذا اخترت أرضًا خالية؟

قال الشيخ: أنت ترى خلو المكان، لكن الله حاضر وناظر، والملائكة تشغله.

ألف مريدوه دعوتهم — في نهاية كل موسم صيد — إلى الوقوف بالتذكر والحداد على أرواح الصيادين الذين ابتلعهم البحر.

الكثير من الخلفاء ورثوا قطبية فرقهم عن الآباء والأجداد. القلة أخلصوا في المجاهدة، والقرب من الولي، حتى نالوا ثقته.

انتقل ولي الله عبد الرحمن بن هرمز إلى الحياة البرزخية.

توالي من بعده المشايخ، الخلفاء، كرَّت حبات المسبحة بخلفاء، لم يخرجوا عن طريق السلف، يحملون لواء الطريقة وأعلامها وشعاراتها، وما خلَّفه من أوراد وأدعية وابتهالات. أخذ المريدون وعامة الناس على كل خليفة جديد أنه يسير فيهم سير الخلفاء السابقين، ما لم يضعه القطب نهجًا للطريقة.

الشيخ زين قمر الدين آخر الخلفاء، يسكت عن مغالاة المريدين في اعتقادهم ببركاته؛ يتبركون بطرف ثوبه، يشربون ماء وضوئه، فيه خير، وبرء من أمراض وأوجاع، يتيممون بالتراب الذي تدوسه قدماه.

يذكر أهل بحري زمن انفلاته من دكان أبيه المعلم عبد المنعم قمر الدين تاجر الياميش بسوق النقلية، إلى جامع الشيخ إبراهيم، يحضر دروس المغرب. لما عرف أبوه ما يحدث سكت عنه، وأتاح له وقت القراءة، والتردد على مجالس العلم. تدبر ما قرأ في كتب الصوفية، ما أملاه وكتبه العلماء والفقهاء وأقطاب الفرق والطرق.

تفرغ بالكلية لصحبة صابر يعقوب شيخ الطريقة الأحمدية الشاذلية، لازم مجلسه، أصغى إلى نصائحه وعظاته، نهل من مَعينه، أخلص في خدمة ولي الله، وخدمة مريديه وزواره، خصَّه الولي بمكاشفات لا تُتاح إلا لخواص الخواص، سلكه في المقامات، يتحقق في مقام، فينتقل إلى مقام أعلى.

لأنه امتلك أفكارًا في توجهات الطريقة وأدائها؛ عهد إليه شيخ الوقت بما جعله في موضع النقيب، أقرب خواصه منه. نسب إلى نفسه وراثة علم الشيخ، أخذ منه الطريق، حمل أمر مشيخة الطريقة.

ترقى في مدارج الصوفية حتى درجة القطب الولي، من حقه، وواجبه، أن ينصح الناس، ويرشدهم، ويدعوهم إلى ما فيه خيرهم. تيقن أن ما يشغله، ويدعو إليه، هو علم القلوب، وعلم الأسرار والأحوال والسلوك. جرد قلبه، وأقبل بهمته إلى الله، الرياضة والسلوك والعبادة والطاعة والزهد وترك الدنيا، والابتعاد عن الناس. همه أن يصفي باطنه من الشواغل والشواغب. يتخلص من أثقال الدنيا. يخوض بحار الأشواق. يرقب الوارد، هذا النور الإلهي الذي يقذفه الله في قلوب عباده المحبين.

رفض أن تبدل الأفكار أحوال الطريقة، كل شيء يجب أن يظل على حاله، لا إضافة ولا حذف، ما كان يكون، كما خلقه الله، لا أشياء مما يصرف المرء عن دينه وطقوس عباداته. جنة المؤمن وطنه الحقيقي، لا يعادلها أسرة ولا قرية ولا عائلة ولا مدينة، إذا دخل المريد الطريقة، فإنه ينبغي أن يهمل ناسه وأرضه، ويَقصُر رؤاه على القطب والأوتاد والنقباء والمريدين. أمر أتباعه أن يباعدوا السياسة، لا يتدخلون فيها برأي.

نسب الناس مناقبه إلى القدرة الإلهية، أخذهم ما صدر عنه من خوارق العادات. تعددت الروايات عن امتلاكه الكثير من القدرات الروحية.

يظل باب بيته مفتوحًا لأي زائر، لا يشغله إن كان من مريديه، أم من زائري أولياء الحي، يحدوهم الأمل في البرء من المرض، وفي النصفة والمدد.

يقرأ في جوانب البيت فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيات من سورة آل عمران وخواتيم سورة البقرة، يشفي الأمراض بالطب النبوي، والأعشاب، يفيد من الرقية الشرعية، والعلاج بتلاوة المعوذتين وآية الكرسي، يحفظ الكثير من الأدعية والرقى، يقرؤها فوق رأس المريض، فيشفى بإذن الله، يُعِد لشفاء المريض تحويجة من جوزة الطيب والقرنفل والقرفة، يهديه أعشابًا، يحتسي نقيعها، فيزول الألم.

يعالج العقم، وأوجاع الظهر، وآلام الروماتزم والمفاصل، وتعب الجسم. يمتلك أدوية لإيقاف نزيف اللثة، ووجع الأسنان، والتهاب الجيوب الأنفية، وعلاج أمراض العين، وما يطفح دمامل وبثورًا على بشرة الجسد، وهشاشة العظام. ربما صنع ما أفادته الممارسة؛ يغيِّر على الجروح، يختن الأطفال، يعطي الحقن.

راحة يده مباركة، إذا مسَّد بها الجزء المصاب، فهو يشفى ببركة الله. تمسيد يده علاج يشفي جميع الأمراض، ليست الأمراضَ الجلدية وحدها، إنما كل ما يعانيه جسد الإنسان. هو يداوي المريض ليبرأ من مرضه، ليعود إلى حياته — كما كان — صحيحًا معافًى، أهم مشغولياته خدمة المولى سبحانه، والسعي في أوامره.

لما اشتد المرض على المريد حسن الزرعي، قَدِم الشيخ لعيادته.

قال الزرعي: ألا يعلم الله بمرضي؟

تأثرت ملامح الشيخ.

– تكفر؟! الله يعلم بكل شيء!

قال المريد: هل أقوى على مخالفة ما يعلمه ربي؟!

اقتحمه الإشفاق لما سأل عن أحمد حبيشي خادم جامع طاهر بك. عرف أنه أغلق عليه باب بيته، لا ينزل إلى الجامع حتى يبرأ من المرض. المؤمن المؤمن، من يرضى بكل ما يجريه

الله عليه مما قد يؤلم الجسد من مرض، ويتعبه في القعود والحركة والنوم، ربما كانت علة الجسد رحمة، يفرغ فيها المرء لعبادة ربه، ويصبر على ابتلائه، ويسلِّم لحكمه. الإقبال على الطاعات أفضل من التداوي. الله هو الشافي، والمبرئ من المرض. يقينه أن الأمراض تُذهب السيئات، كل ما يعانيه المرء — حتى لو كان شكة دبوس — يخفف من الذنوب. إذا حُم القضاء، فإن الموت يوصل العبد إلى خالقه، الحبيب إلى حبيبه.

فاجأه قول الرجل: ربما يقيدني الله بالمرض عن المعصية، فيغيب الدافع لارتكابها.

وهمس في صوت مكدود: لا أحتاج إلى مداواة الطبيب، وإنما إلى عون الله.

كاشف المريد بأنه يخشى عدم الرغبة في طول العمر، والحرص على الدنيا، وحب البقاء، خلقنا الله لنعيش دنيانا، ونعد أنفسنا للآخرة.

انضم إلى الطريقة — بتوالي المكاشفات — عدد كبير من الأتباع والتلاميذ والمريدين والتابعين والمحاسيب والمحبين. يضعون ثقتهم فيه، ينصتون إلى نصائحه، يلبون إيماءاته وإشاراته. أخذ الكثيرون عنه، وانتسبوا إليه. منحهم شعورًا بالمؤانسة والطمأنينة والأمان، بوسعهم أن يعتمدوا عليه.

لم تعد كرامات الولي مقصورة على ضريحه أو مقامه، امتدت إلى ناس الحي في المساجد والزوايا والبيوت والأسواق. اعتقد الناس أن البركة سكنت بحري بمناقب ولي الله. اعتقده الناس اعتقادًا عظيمًا. نسبوه إلى أهل الأسرار، هو ولي حواش، يلبي استغاثات الناس، يحل ما يواجهونه من مشكلات، يدرأ عنهم الأخطار.

فاعلم أن الانجذاب إلى الصوفية لا يأتي بالقراءة، ولا تلقي الدروس، ولا الجلوس إلى العلماء. ربما هي خطوات تالية، تثبت نور المعرفة في النفس.

ألفت رؤية الشيخ زين قمر الدين يطوف في الصحن عقب صلاة الفجر، يشخط فيمن ظلوا داخل الجامع، يتظاهرون بالقراءة، أو ناموا لصق الأعمدة. ينتبهون إلى صرامة الصوت، وإن غاب مصدره. تأخذهم الهرولة إلى خارج المسجد.

أعرف أنه دائم التجوال في صحن الجامع، يتفقد المنبر والدكك والدواليب والحُصر والسجاد وإضاءة القناديل. تُغلق بعد صلاة العشاء أبواب المسجد، فيُعنَى الخدم بتنظيف الصحن، وما يلحق به من حجرات ودورات مياه، يُعاد فتح الأبواب قبل صلاة الفجر.

حدث ما فاجأ الناس، وبدل أفكارهم.

علت الهمسات باختيار الشيخ ساحرًا، تخفَّى عن الأبصار، وإن رسمت الروايات هيئته بأنه عجوز، يتوكأ على عصًا، ويرتدي ثيابًا غريبة، أتى به الشيخ من بلد لا يعرفونه، يمتلك

قدرة على تسخير الجان، ويجيد علم الحروف والطلسمات والسيمياء والكيمياء، وعلوم الأسرار والتنجيم والغوامض السحرية.

دلَّه الساحر على طرائق تعامله مع المريدين، لكل مريد خطاب تؤهله طبيعته لتلقيه. إذا لم يمتثل الرجل لأمر الولي، سمَّره بتعازيم في موضعه، لا يقوى على تركه. ضمَّن عباراته ما كان شاحبًا في أذهان الناس أو مهجورًا؛ الشياطين، المردة، القرناء، السحرة، العرافين، المنجمين، ضاربي الرمل، قارئي الودع.

تناقل أتباعه روايات عن إتقانه التنبؤ، وقراءة الغيب والمستقبل، وأفعال القدر، وكشف المحجوب والأسرار، وإشارته إلى الكثير من التصرفات والوقائع قبل حدوثها، بما يرفعه عن سواه من الأولياء، ويحقق له مكانة الدرجة العليا، تساوي مكانة الأقطاب الكبار.

وهبه الله قدرة فك ألغاز النفس، وكشف أسرارها. أشياء لا يرَونها، ولا تخطر في الأذهان، لكنه يفاجئهم بالتكلم فيها، يطيل الكلام عن التفصيلات والمنمنمات، كأنها أمامه. يكوِّن أفكاره عن الناس من تأمل أقوالهم وتصرفاتهم، تعكس ما في نفوسهم، وما قد يضمرون. يعرف ما سيقوله المريد قبل أن يتكلم، تَنفُذ عيناه إلى ما يجول في ذهن محدثه، يدرك مغزى النظرات، وما يدور في النفس.

أيقنوا من استطاعته قراءة الطالع، وفك الربط، وكتابة التعاويذ والتمائم، وصنع الأحجبة للمرضى، وقراءة الطلسمات لإبعاد الخطر، وجلب الرزق والمنفعة والخير، وعلاج تأخر الزواج، والعنوسة، وجلب الحبيب، وعدم الإنجاب، والربط بين الزوجين، ورد المطلقة. عُرف بقدرته الخارقة في التطهير من تلبيس إبليس، وفك السحر الأسود، وصد الأذى، وعلاج المس الشيطاني، واستعمال الرقى لصرف ما يعانيه المرء في الأوقات العصيبة والمحن، وتلاوة الأدعية في الآذان، لطرد الأرواح الشريرة التي ربما تسللت إلى الجسد من ثقبَي الأذنين. حتى من يصيبه مس من الجن، يغطِّسه أهله في المالح، يخرج الجان من بدنه، ويستردُّ نفسه.

رآه الكثيرون بأم أعينهم وهو يكشف عن أحوال الموتى، ويرد القوى غير المنظورة، ويطرد الأرواح الشريرة والجان والشياطين. الموجودات السفلية طوع إرادته، يصنع الوصفات السحرية من الأعشاب البرية والجافة، وريش الطير، والخنافس والصراصير المسحوقة، وجلود الثعابين والحيات، والقواقع الصغيرة. يأمر بدسها داخل الثياب، أو في دورات المياه. يجيد صنع خلطة أعشاب مسمومة، يمسِّد بها الجسد، يموت صاحبه دون أعراض أو علامات.

قد يكتب أحجبة لمنع موت الأجنة في بطون الأمهات، أو في سن الرضاع. يكتب التعاويذ والتمائم، يصنع الأحجبة للمرضى، وللعاقرات، يجيد صنع الأحجبة على الورق والجلد والقماش، والتميمة التي تدرأ الخطر بتعليقها حول العنق، والتعويذة من عظام موتى البشر والحيوان والطير، يحفظ من التعاويذ ما يعمِّق سيطرته على أهل العوالم السفلية.

يمسح بيده على رأس المرأة كي يزول عقمها، تتهيأ للحمل والإنجاب، يمن الله عليها بالذرية الصالحة. ربما زار المرأة في المنام، بثياب بيض، تحيط به مخلوقات نورانية، لعلها ملائكة، يهمس بأدعية، فيرزق الله المرأة ما تتمناه. تعود إليها خصوبتها، وقدرتها على الإنجاب، يهبها الله العوض.

رُوي أنه يشفي من أمراض الشيخوخة، يُطيل عمر المريض حتى ينسى الموت. يعالج السكر والاستسقاء والسرطان بجرعات من لبن الناقة وبول الجمل. تناثرت تأكيدات بتعدد حالات شفائه الأبكم والأبرص والمجذوم، بأعشاب في قِدر تُغلى بالماء، يضيف إليها قواقع وأصدافًا جمعها من رمال الشاطئ، يرفد علاجه بقراءة الفاتحة، وسورة تبارك، وآيات القرآن. يقرأ سورة يس، ثم سورة الإخلاص، فالمعوذتين والتسبيحات والأدعية، يردد أسماء الله الحسنى. يمتلك — بما زوده به الساحر— قدرة عجيبة على الإيحاء، ينقل أفكاره إلى الآخرين بنظرات محدقة، يرَون ما غابت عنهم رؤيته، أو ما سعى إلى غرسه في رءوسهم. نفى أن يكون مرض المرأة مسًّا شيطانيًّا، أو فعل الجان، إنما هو عارض نتيجة ظروفها القاسية.

ألف المريدون رؤيته في أماكن كثيرة. يمتلك القدرة على الوجود في كل مكان، ثمة سحابة تلازمه في سيره ووقفاته، يدعوها فتلبِّي، يغتسل أو يتوضأ بمائها. يلامس بعصاه البحر، فتجمد المياه، يجيد التعزيم على الماء، يحقق به ما تحتاجه نفسه، نسب إليه مريدوه السيطرة على المطر، يعرف أين يوجَد المطر، السحب كثيرة، لكن القليل منها مثقلة بالمياه، يحدق فيها بنظراته، يخترقها، يتعرف إلى الخبيء من المياه، يتمتم بأدعية يستجيب لها الغيم، فتهطل الأمطار، أو يدعو، فتوقف السماء غوثها. يمتلئ البيت بالناس في أوقات النوات، وعدم استطاعتهم نزول البحر.

صنع له الساحر حجابًا بحجم سترة واقية، يغطي بها صدره. لما زاد سخطه على أهل بحري دعا الساحر، فأظلمت سماء الظهيرة، وعلت الأمواج، واشتدت الريح، تحول كل شيء إلى نوة عنيفة.

تكاثرت الروايات عن الزيادة في عبادته عمن سبقه من الأولياء والعابدين. فاض المدد الإلهي — في رواياتهم — بما أسعده. صار من أهل الخطوة، يمشي على الموج، يطير في الهواء، تُطوى له الآفاق، تُتاح له الرؤية عبر المسافات والحواجز، يبلغ الموضع الذي يقصده في ومضة عين، يمتلك القدرة على تحويل النحاس إلى ذهب، يتلقى أوراده عن النبي ﷺ في اليقظة لا في المنام، يقطف من ثمار الجنة، دون أن يغادر موضعه. يقينه — من طوالع الساحر — أن عمره سيطول بأكثر مما عاشه النبي نوح، وربما يهبه الله الحياة إلى يوم القيامة، فلا يموت أبدًا.

لم يكن يأذن لأحد بالاقتراب من عالمه، أو بمجرد الاقتراب منه. أحاط نفسه بسياج من اللامبالاة، لا يأذن لسؤال، أو ملاحظة، أو نظرة فضول، أن تنفذ إليه.

عزل نفسه عن الناس، وإن اعتادوا تردده على إسطبل أول شارع السيالة، يختار حصانًا يركبه إلى المنتزه — على طريق الكورنيش — ويعود. ربما ركب حصانه في احتفالات أبناء بحري بالمولد النبوي، ومولد أبي العباس، والمناسبات الدينية الأخرى.

قلت لخليفة ولي الله: الدين يعترف بالسحر، لكنه يكفِّر من يمارسه!

وحدجته بنظرة متأملة، أتبين في ملامحه انعكاس الكلمات: معجزات النبوة من الماضي، عصا النبي موسى لن تكون موجودة — بقدرة الله — فتكشف عصي السحرة وحيلهم!

أطلق ضحكة عصبية، لم أستطع فهم المعنى الذي تنطوي عليه.

– إذا حاورتك فستغلبني، ليتنا نتكلم فيما قدمت من أجله.

وهز أصابعه المتكورة: أعرف أن ما يهمك هو أمور المسلمين.

– هل هذا ما يهم مريديك؟

– هل لديك ملاحظات على سلوكياتهم؟!

– عندما يعجز الناس عن بلوغ مرادهم فإنهم يصدقون ما لا ينبغي تصديقه!

– الصوفية اقتداء بالرسول، وسعي للتقرب من الله.

سقطت المسبحة — بالانفعال — من يده، سبقه خادم المسجد في الانحناء والتقاطها. قال الخليفة وهو يعيد كرَّها بأصابعه: نحن أهل الباطن. أهل الظاهر ليسوا أهلًا لمناقشتنا.

فاعلم أنه لا تصوف بدون مشيخة، ولا تصوف بدون مريدين. هم أصل الطريقة، الفرقة. من يأخذ عن شيخ، لم يأخذ عن شيوخ سبقوه. اعتمد على اجتهاده، ورؤاه الشخصية، وتصور نفسه عالمًا بما لا يحتاج إليه من أحد، قد ينزلق في الخطأ. العهد الذي يأخذه عن الشيخ التزام ديني، ينقله — عند الترقي — إلى مريديه.

تأمل اللهب الأزرق المتراقص تحت الكنكة، بعد أن قلَّب تلقيمة البن والسكر والماء.

– إن العلم اللدني يتنزل عليَّ، فأعمل بما فيه.

– نحن قد ننشغل بملاحظة أخطاء إخوتنا وننسى أخطاءنا.

ورمقته بنظرة استياء: هل أنت الشيخ زين قمر الدين الذي أعرفه؟!

وفي لهجة محذِّرة: إذا خضت بقدميك في مياه الساحل، فحاذر أن تجتذبك المياه العميقة.

نظر — خلل النافذة — إلى الغيم المتناثر في زرقة السماء.

– أمتلك من العلم ما يعصمني.

١٤

ترامى — قبل أن أبلغ شارع الميدان — تداخل الأصوات، حشود ملأت صحن جامع علي تمراز، وامتدت إلى الشوارع المتفرعة منه؛ سراي محسن باشا، رأس التين، إسماعيل صبري، التمرازية، فرنسا، حتى مقام الولي محمد شرف، خلف الجامع، علا سوره الحديدي وسط تزاحم الحضور، رءوس متجاورة، تهتز بالتلاوات والتسابيح والأدعية، تتخللها البيارق والرايات والأعلام الملونة والزينات واللافتات في زواياها أسماء الخلفاء الأربعة العظام، والبخور يضوع الجو في شفافية كالسحر.

زرت الضريح في زاويته القديمة، زرته في جامعه الحالي.

لولي الله الشيخ علي تمراز في نفسي مكانة العلماء الصالحين الذين حاربوا مع السلطان الظاهر بيبرس ضد غزوات الصليبيين. نُسب إليه — في زمن دنياه — الكثير من الكرامات. يمد الأسمطة والموائد للمريدين والفقراء والمحتاجين وعابري السبيل. الطعام يأتيه من السماء، لا ينفد بعد أن يأكل منه، ويدعو الناس لتناوله.

لم يعد المؤذن يضع راحتيه على خده، وينطلق بآخر صوته في الأفق بالأذان والإقامة، يغنيه الميكروفون عن رفع الصوت، يصل مداه إلى صيادي البلانسات، قرب البوغاز، وإلى الشوارع ما بعد ميدان المنشية.

تناقل الناس ما يُروى — منذ عشرات السنين — عن أفعاله الطيبة في قعداتهم على القهاوي والرمال ورصيف الكورنيش وداخل البيوت والبلانسات.

لم ينكر صفة الدرويش التي أطلقها عليه وجهاء العصر وعوامُّه. الدرويش صوفي، والصوفي الحقيقي لا ينعزل عن الناس، لكنه يطَّلع، ويقرأ، ويلتقي الناس في الأسواق وحيث يقيمون. أكثر تردده على المساجد والزوايا التي يقل فيها المصلون.

جاوزت زحام الدراويش، أراهم ولا يرَونني، عدا الأولياء، فإني ألجأ إلى الهاتف، أهجس به في خاطر المرء، ينشأ حوار، يتصور أنه مناجاة في نفسه. أزوره في الحلم، أو أخاطب وجدانه، أو أخاطبه عبر الكشف، يُعلِمني بما هو فيه، أنصحه بما ينبغي الأخذ به.

الأعمدة الرخامية البيضاء الاثنا عشر، تُداخلها خيوط سوداء متعرجة، وعقود البناء، والمقرنصات، والزخارف الجصية وتكوينات الأرابيسك. حزم الضوء تتسلل — على جوانب الصحن — خلل النوافذ، القبة الوسطى ذات الست عشرة نافذة من الزجاج الملون، تتوسطها ثريا هائلة، بها الكثير من المصابيح الكهربائية، إلى جانب قبتين صغيرتين، تعلو إحداهما ضريح الولي.

تخطيت الصفوف ناحية الباب الخلفي — دون أن يفطن المصلون — حتى الضريح على يمين المحراب والمنبر، تعلوه قبة تنفذ من ثقوبها أشعة الشمس وسواد ظلمة الليل، يحيط به سياج من المعدن المشبك، مكسو بالخضرة، مطرز بالآيات القرآنية والأدعية، تضوعه روائح البخور ولبان الدكر والجاوي الأبيض والمستكة والصندل والحنتيت.

اخترقته.

لما ناديت ولي الله باسمه، أطال التحديق فيما حوله، ثم عاد إلى الكتاب بين يديه. عرف أنه لا يوجَد ما يلفت النظر، أخذه الاستغراق، كأنه لا يرى ما حوله.

أعرف عن عزوفه عن التكالب على الدنيا، وزهده عما في أيدي الناس، وأنسه إلى ذكر الله. يذكر الله قائمًا، وقاعدًا، ومستلقيًا، ونائمًا. الطريق الصحيحة في الإكثار من ذكر الله، والمداومة عليه، دونًا عن بقية العبادات؛ ذلك لأن الذكر هو ما تسعى إليه هذه العبادات. نحن نصلي، نصوم، نزكي، نحج إلى البيت الحرام، يحركنا ذكر الله، هو التأكيد لكل العبادات.

يقضي الوقت ما بين الخروج من الضريح، والعودة إليه في ارتياد الأسواق، والشراء من المحال، والجلوس على القهاوي، والتوقف بالفضول للفرجة على ما يثير الدهشة. حفظ قسمات الحي وتضاريسه، لكثرة سيره فيه، تنقله بين ميادينه وشوارعه وحواريه وأزقته. يسير على قدميه، يركب الدابة، يخالط الناس، يستقبلهم في مسجده الصغير، ثم في الجامع الذي حل — بإنفاق الإسكندراني باشا — محل المسجد. عرف حسن الإسكندراني ما نُسب إلى الشيخ علي التمرازي من الكرامات. لا يشغلني نفي صفة الولاية عنه، الولاية تتحقق بالإخلاص في محبة الله، الزهد والاعتكاف واعتزال الدنيا، الائتناس بالدعاء، قصر اللقاءات على أهل المعرفة، الاقتباس من لطائف الإشارات، والعلوم الظاهرة والجوانية؛ الظاهر والباطن، الجلاء والخفاء، المكاسب والمراتب، الوجد والتواجد والوجود، الغيبة والحضور،

الصحو والسكر، المحو والإثبات، المحاضرة والمكاشفة، يصبح إلى النور في أفعاله وأقواله وإرادته وحركاته.

يتولد الكلام من العفوية؛ مشهد عابر، نداء، ملاحظة، سؤال. يلتف الناس حوله، يكتفون بالنظر إليه، أو ملامسة عباءته، أو يبادرونه بأسئلة في أمور دينهم ودنياهم، ويحدثهم عن عِبَر الآخرة والدنيا، لا يُظهر ضيقًا، بل يجيب بما يسع الأفهام، ويلاطف، ويبش في الوجوه.

يخالط الناس، لكن قلبه معلق بالسماء، بالحق سبحانه وتعالى.

تردد على مجالس الورع والحكمة، خالط أهل الذكر والمعرفة والعلم، حفظ المناجاة والمدائح وسيرة الرسول والإنشاد وسير الأولياء والصالحين والتابعين. صار من أصحاب الرياضات والمجاهدات، له مواقف ومقامات وأحوال ومكاشفات، وإن رفض ما نُسب إليه من وقائع وكرامات وخوارق. يستعيد قول البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، ويمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند أوامر الشرع ونواهيه.

سلك طريقَه الكثيرُ من تجار شارع الميدان وباعته، ومن قاطني شياخة التمرازية، وما حولها، انفتحت عليهم بأقواله أحوال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة. اجتمع عليه خلق كثير من الإسكندرية والمدن الأخرى، أخذوا العهد على يديه.

إذا جلس المريد بين يدَي ولي الله ليأخذ العهد، فإن الولي يشترط التوبة بداية للخطوات التالية. التوبة مقام أول، تسبق ما عداها من العبادات، ولا تجوز العبادات إلا بها.

فُقد الكثير من كتب ولي الله المؤلفة، وإن تناقل أتباعه من أقواله ما يصنع له مكانة حقيقية بين أولياء الله. رُويت عنه مواقف ومقامات وأحوال. ينخرط المريدون في الأذكار والأدعية والابتهالات، تستغرقهم تمامًا، فيما يعود هو إلى العالم الذي اختاره. قدراته الروحية تُبطل كل سحر. نظرات عينيه تغنيه عن إصدار الأوامر، أو استعمال جسده في تحريك الأشياء.

أصعب الأحوال أن يبلغ إشفاق الولي على مريديه حد المؤاخذة. وجد ولي الله علي تمراز في الدراويش، أتباع الطريقة، من أحسنوا التلقي والفهم. كرامة المرء في عمق تدينه. لأنهم اختاروا الله على سواه؛ فقد اختاروا الذل على العز، والفقر على الغنى. انقطعوا إلى العبادة والزهد، زهدوا في الدنيا وما فيها مما يتكالب عليه الناس، وجدوا الفقر في جنب الله أغلى من كنوز الدنيا. شاغلهم أن يخرجوا من ظلمات طلب الدنيا، إلى نور طلب الآخرة. أنوار الكواكب تهدي إلى الدنيا. ما يأملونه أن يهدي قلب الولي علي تمراز، كما تهدي قلوب الأولياء، إلى الله سبحانه.

أعرف أن مقام ولي الله لا يخلو — أو يكاد — من الزائرين. نذروا لمقامه نذورًا من المال والطعام، نحروا الذبائح، قدموا العطايا التي تخفف عن مريديه وطالبي البركات.

ترضيه زيارة الضريح، لكن المغالاة تحزنه. هو يرفض البدعة، وإهدار الوقت، والزهو، وانغماس المريدين في غيبوبة التواكلية.

قال لرؤية المولد في ساحة المرسي: هذه بدع تخالف شرع الله!

حرص ألا يكون صحن المسجد موضعًا لغير عبادة الله، رفض أن تُنسب إليه الولاية، ما رُوي من كرامات ومكاشفات ومناقب هبات من الله، صنعت تصور الناس له في موضع الولي. يحرص على السنة، والتجرد، والأدب، والمسكنة، لا يستعظم نفسه ويستصغر الناس. يصل ما بين أحاديثه قول الولي أحمد الرفاعي: «إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فأكون كآحاد المسلمين.»

أشفق على مريديه أن يضيعوا دنياهم على حساب الآخرة، من سكن إلى الله من المريدين، اكتفَوا بالذات الإلهية، انشغلوا عن مباهج الدنيا بأشواق السماء، قطعوا العلائق مع الخلق إلا لضرورات العيش، والوقوف متجاورين، عابدين، خاشعين، بين يدَي الله. اقتصروا على الفرائض والرواتب، لا يخطر في نفوسهم شيء إلا الله سبحانه. سلموا لقضاء الله، رضوا بقدره، الله هو الذي يحيي ويميت، يمنح الرزق ويمنعه، له أسبابه وأحكامه التي تتعلق بالآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار.

يجدون أنفسهم باقين بحول الله وجلاله في دنيا الناس، وإن عاشوا فيها بالقرب، يخافون المفارقة، يأنسون عبودية الله. إذا صار في قلب العبد همٌّ سوى الله، فإن حاله يُفضي إلى الحَجب عن الله.

حسبُ الصوفي من العلم — في ظنهم — العلمُ بالوحدانية، ومن العمل تأدية الفرائض مع محبة الله ورسوله، وأن الله مع من أحب، ولو قصَّر في العمل، من لم يعرف نفسه بالفقر والفاقة والعجز والضعف والمسكنة، لم ينل صفوة اليقين.

جاوزوا الفرائض الظاهرة من طهارة وصلاة وصوم وجهاد وغيرها مما قد يصعب أداؤه، إلى الفرائض الباطنة من توكل وتفويض وصبر ورضًا وزهد وتوبة.

على من ابتلاه الله أن يصبر؛ فالابتلاء مدخل إلى الترقية. الصبر أول مقامات التوكل. يقينهم أن أحدًا — في مجال التوكل — لا يغني عن الله. التوكل استعادة وعبادة، وإيمان بالغيب. الأمر كله لله، لا يشاركه فيه أحد، هو رب العالمين، ومالك الموجودات.

التوكل مثله مثل الخوف والرجاء وغيرها من المقامات والأحوال، قصَروا وعيهم على أن المخلوق لا يملك من أمر الخالق شيئًا، صرفوا همهم إلى الله، فيكفيهم مَن دونه، استراحوا

من هموم الدنيا والآخرة. تغريهم هِبات الناس بالقعود عن طلب الرزق، يرفضون السعي لاجتلابه، التكسب في يقينهم معلوم، الرزق يأتي في وقته. لكل امرئ حظه من الدنيا، يأتيه حتى وإن لم يكن مستعدًّا لتلقِّيه. يتلون القرآن، يدارسونه، يذكرون الله كثيرًا، الذكر قوت الأرواح، تتوافق الأصوات بنغمة روحية، ينتقلون منها إلى نغمة روحية أخرى، فثالثة، وهكذا. تركوا الدنيا ومن فيها وما فيها، عاشوا متوحدين مع الذكر، تأخذهم أوقاته من الدنيا الفانية، إلى الحضرة الإلهية بتعدد أكوانها، تنزل عليهم السكينة، تغشاهم الرحمة، تحفُّهم الملائكة، يذكرهم الله فيمن عنده.

في فترات الصمت عن القول بالذكر، يعلو قرع الطبول والدفوف والأهازيج والتسابيح والأوراد والإنشاد. تمتد الأيدي إلى الصواني، تحمل الطعام والماء والمشروبات والحلوى، يرسلها التجار والباعة في بحري، وسكان البيوت المطلة على الميدان. يفاضل المريدون، الدراويش، بين ما يُقدَّم إليهم، يختارون فقير الطعام، القبول بتناول الطعام لمجرد تقوية الجسد، فلا يأخذهم الضعف عن أداء الفرائض والطاعات، وموالاة الذكر والتوحيد والحمد. احتفالات مولد الشيخ تمراز ثمانية أيام في السنة، غاب المولد بلزوم المريدين الساحة المقابلة للجامع وما حولها، أخذ توالي الأيام ما اعتاد أهل الحي إقامته من احتفالات مولد، وحلقات ذكر، وسوق للعيد، يبدأ من قبل عيدَي الفطر والأضحى، يمتد لأيام طويلة بعد انتهائهما. ثبت المشهد المتكرر للأجساد المتلاصقة والقراءات والدعوات والابتهالات.

أشفق الشيخ من قعود المريدين عن السعي إلى الرزق، لا صلة للقعود عن العمل بالتصوف. أفرد في خطبة له بصلاة الجمعة حكاية إبراهيم بن أدهم. لم يمنعه ثراؤه من أن يحرس بساتين الناس، ويحصد زراعاتهم، ويضرب لبيوتهم الطوب اللبن من الطين.

رفض أن تكون العبادة حرفة للمريدين، دعاهم — في هواتف لا تنتهي — إلى التوكل لا التواكلية، فرق بين التعلق بالله والتوكل عليه، وبين التعطل. لا توكل إلا مع الإيمان، هو باب اليقين. نحن نحيل إلى القضاء والقدر ما في نفوسنا من ميل إلى التقاعس والتواكل، وانعدام الإقبال على المعرفة، والسكوت عن الأخطاء، والفشل فيما نهمل صنعه.

ليس الزهد في الامتناع عن الطيبات مما أحله الله. لا زهد في الحلال، ولا رفض للمباح من اللذات، ما أحله الله من الخطأ تحريمه. التوكل مقام، والزهد من شروط التوكل، من يعرف حقيقة الزهد فإنه يظفر بالتوكل، التوكل وليس التواكل أعلى مقامات اليقين.

أظهروا الموافقة، ثم غلبهم الشوق إلى التجرد والزهد والعودة للسياحة.

عمق تأثر الشيخ لما فعله المعلم عبادة حفظي تاجر الأقمشة في شارع فرنسا بنفسه، هجر بيته ودكانه، استغنى عن كل شيء، لزم ساحة الجامع بملابس فقيرة، لا يبدلها، يأمل أن تواتيه السماء بطعامه.

فاضت مشاعره بما حرص على كتمه.

هاتف خليفته، فينصح المريدين بنزع المرقعة المهملة، وتهويش الشعر، وإطلاق اللحى دون تهذيب، المريد العاطل يركن إلى البطالة، ويرتزق من سؤال الناس.

شكا الخليفة — في وقفته أمام الضريح — من قعود الدراويش عن طلب العيش، ترك الأسباب، واعتزال الدنيا بكل ما فيها، حبسوا أنفسهم في الميدان، وما حوله، يكتفون بالتسبيح والتحميد وتلاوة القرآن، كأنهم ينتظرون أمطار المدد، تنزل على الحشود المتلاصقة، فتبدل حياتهم إلى ما يأملون.

حاول أن يصل المعنى إلى مريدي ولي الله ومحاسيبه، طال ترقبه لإفاقتهم من غفلة التواكلية، يردهم الله إلى مقام الدلالة والإرشاد، فيعودون إلى جماعة المؤمنين.

ردوا على الخليفة بأن الزهد ليس رفضًا للحياة الدنيا، إنما هو سعي إلى الحياة الآخرة، ما تحفل به من السلام والطمأنينة والصفاء الروحي.

أزمع الشيخ علي تمراز أن يبتعد عن الدنيا ومن فيها، يفرغ إلى عبادة الرحمن، بلا همٍّ ولا انشغال بأوهام تخرج عن صحيح الدين. حتى الخليفة لم يعد يهمس له بهواتفه.

قطع جلوسه في الحضرة، لزم حجرة نومه وكتبه، لا يغادرها إلا لضرورة. يَقصُر حياته على مراقبة الله إياه، يستغني به عن رؤية المريدين، وبقية الخلق. مال إلى الاستغراق الكلي في القراءة والتأمل والزهد والعبادة، أنس بالخلوة، فرارًا إلى الله، ينسى — في رحاب الخالق — غلبة التواكلية على حياة المريدين، والشطط في الفهم والأفكار والتصرفات. قرأ في علوم الأولين والآخرين، وقرأ الأحزاب والمقامات والأحوال والرموز والإشارات. أجاد فهم المتون والشروح والحواشي والهوامش، وفتوح الصوفية وكشوفهم وفناءاتهم، حفظ سرائر الحروف والألفاظ والتعبيرات، اطمأن إلى علم الله، لا يبتعد عنه إلى علوم الخلق، فانقطع عن نفسه، وانقطع إلى ربه، اختاره على ما سواه، لا يجد وحشة في الوحدة، ولا إحساسًا بالانفصال عن المحاسيب، استغرق أوقاته في الاشتغال بالذات الإلهية، اعتصم بالله، فوَّض أمره إليه، سكن إلى أنوار التجليات، وحلاوة القربة، وأنس المحبة، وصفاء الوقت.

لما طرق الإشفاق نفسه، تبدَّلت مشاعره، هم محسوبون عليه، مسئوليته إفاقتهم من الغفلة في الفكر والفعل، فيغترفون من فيوض بحار الألوهية، ومن المدد الرباني. نسي ما

أزمعه مِن جعل همِّه ربَّه، ينقطع عن هموم الدنيا والآخرة، يغمره شعور بالراحة، ويمسي بلا هم.

لو أن القائد البحري حسن باشا الإسكندراني لم يفطن إلى الشاهد فوق قبره، ما بنى فوقه زاوية، هي الجامع الحالي.

وهو يُغالب التحير.

– طلبت من الخليفة أن يستعيد أمامهم نصحكم بالعمل على السبب، يجعل المرء مكوكه سبحته، أو يحرك أصابعه في الخياطة. هززت رأسي مؤمِّنًا.

ليست الصوفية بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، إنما بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية، تتعدد طرقنا في الرياضة والمجاهدة، لكن السكون هو ما نرفضه. أخالف الرأي بأن يفتقر المرء بعد الغنى، ويذل بعد العزة، ويخفى بعد الشهرة. السعي إلى الرزق والكسب الحلال دعوة الإسلام لأهله. ذلك يدفعهم إلى البعد عن الفاقة والذلة، وتأدية الزكاة للمُعوِزين. الانشغال بالله وحده لا يعني أن نهمل أمور دنيانا. خلقنا الله لنعبده، ولنعمِّر الأرض.

في لهجته المشفقة: تمنيت لو أن الإسكندراني أبقى على الضريح المُهمَل.

قلت: أنت تتعرف إلى سيطرة القبطان على السفينة إن واجه عاصفة عاتية.

ودعته بوعد المراجعة. يعود إلى مريديه وناسه، فيعودون إلى صحيح اليقين، وإلى أنفسهم. ليكن هاتفك فيمن يترأس الجماعة أن الخوف من الزلل في الخطأ يعني ضعف اليقين، أو انعدامه.

١٥

خلَّفتُ الميدان، سرت في شارع رأس التين حتى تقاطعه مع إسماعيل صبري. لمحت قطعة خبز ملقاة في الطريق، التقطتها، وضعتها على جانب، فلا تُداس بالأقدام.

اخترقت شارع فرنسا، البنايات والأفران ومحالُّ الأقمشة والأثاث، الشوارع المفضية — من ناحية — إلى شارع الميدان، والشوارع المتصلة به حتى الترسانة البحرية، من الناحية المقابلة إلى شارع محمد كريم الموازي لطريق الكورنيش.

تناهى — من موضع قريب — أصوات تلاوات وأدعية ونداءات، مضيت في اتجاه اختلاط أصوات المنشدين، وقارئي الأوراد، وابتهالات الذاكرين، ونداءات الباعة.

الباب الخارجي يفضي إلى ردهة، على يمينها السُّلم الصاعد للطابق العلوي.

يخلو المسجد من ضريح أو مقام ولي، أنشأه كما تعلم الحاج إبراهيم تربانة، التاجر المغربي.

هو — منذ إنشائه — بيت الله.

رقيت الدرجات الجرانيتية من السُّلم الخارجي إلى الطابق العلوي. الأعمدة تعود إلى عصور اليونان والرومان، والأرضية مفروشة باختلاط الحصير والسجاد. من السقف تتدلى مصابيح كهربائية، تختلف عن القناديل التي كانت في الماضي.

عُنيتُ بترتيب ما تبعثر في صحن المسجد من مصاحف وكتب استعارها المصلون من المكتبة الخشبية المجاورة للمنبر، كنست الصحن بيدي، فيه ثواب أطلبه.

فاعلم أن حقيقة القرب أن يغيب المرء في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك، فلا يزال يدنو، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه، انقطعت رائحته عنه.

حين جلست إلى الشيخ مرسي رحيل لصق حائط الغرفة المطلَّة على شارع فرنسا، تترامى منه النداءات والأدعية والابتهالات، كنت قد اخترقت شوارع وحارات وتقاطعات ومَفارق.

يقيم وحده في البيت، ما بين ورش المراكب وقصر رأس التين. لا يكاد يبرح البيت إلا إلى الحلقة، أو للصلاة وإلقاء العظات في جامع طاهر بك بالحجاري. المسواك في يده، يحرص أن ينظف به أسنانه.

هاتفته فيما يشغلني، ما قَدِمت به من حميثرا إلى حي الأولياء، التلاميذ.

تلفَّت الشيخ مرسي حوله كمن يأمل الغوث. أخرج من جيب العباءة مسحوقًا، نفثه في الفراغ، همس بأدعية غامضة الكلمات.

أعرف ميله إلى الزهد والتصوف ومحاسبة النفس، منذ هجر عمله في وكالة تربانة بشارع سوق الترك، يُكثِر من محاسبة نفسه، ومن العبادة، ويحرص على قيام الليل والتهجد. وضع في جيب العباءة نوتة صغيرة، يعود إليها إن خلا إلى نفسه، يضمِّنها كل ما رآه، أو استمع إليه، أو دار في خاطره وتأملاته من أمور الدين والدنيا. تقتصر عظاته على شرح الأحاديث، والسنة النبوية، توضيح ما قد يكون غامضًا من معانٍ وأحكام.

الناس تجتمع إليه في المسجد، وحيثما اتفق يجدون فيه ما لا يجِدون عند سواه من الشيوخ، يعظهم، يجيب عن أسئلتهم، يشغله أن ينقل إليهم ما تعلمه، يحثهم على الرياضة والمجاهدة والمعرفة والقرب، وأداء حق الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

سُمي مرسي لأن أباه رأى في المنام قبل ولادته وليَّ الله أبا العباس يدعوه لأن يُطلِق اسمه على المولود المرتقب. عَهِد به أبوه إلى فقيه، يعلِّمه القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والقرآن الكريم. تعلم صنعة تجليد الكتب على يد أبيه، تردد — في أوقات تبطُّله — على مقابر العمود. يتلو آيات القرآن، يعيش على ما يقدِّمه له زوار مقابر العامود من الأقراص والمنين والفاكهة، رحمةً ونورًا على أرواح الموتى.

لم يدخل الصوفية إلا بعد أن تزوَّد بمعارف وعلوم أَهَّلَته للفهم. لا يذكر متى ولا كيف تصاعدت في نفسه تجليات العلوم والحكم والمعارف. تعدد ظهور الخضر والشاذلي والمرسي وأولياء لم يميزهم في نومه، تكرر صحوه على ما يدفعه إلى التلفت، لا يعرف إن كان ما عاشه أحلامًا أم كوابيس. صحا وجد نفسه فوق صخرة الأنفوشي، تسبح في الأمواج تحتها حيواناتٌ هائلة الأحجام، تصده عن التفكير في العودة إلى الشاطئ القريب. خالط الناسَ — في الأيام التالية — بجسده، يكلمهم ويكلمونه، يأخذ منهم ويعطي، لكن الطريق أمامه ضبابي، غير واضح الملامح، لا يعرف ما فيه، ولا إلى أين يتجه.

شعر أن هذا هو عالمه الحقيقي، طال غيابه عنه.

ترك الوكالة، رحل — بقلبه — إلى معرفة ربه، والْتماس رضاه. عُني بإقامة أوامر الله تعالى، حافظ على الصلاة، وأكثر من ذكر الله، وداوم على تلاوة كتابه الكريم. مال إلى ترك الدنيا، والابتعاد عن الناس، انقطع للعبادة والرياضة وسلوك الطريقة، ترك معاملة الخلق، وكل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله.

لزم باب الله، لا يبرحه حتى يقبله الخالق.

جاهد نفسه، روَّضها، هذَّبها على الطاعة. زاد ميله إلى الوجد والشوق الروحي في أقواله وأفعاله. انتوى أن يخرج من مصائب الغفلة، يقطع العلائق بمن حوله، وما حوله، يجمع قلبه على الله تعالى، صفَّى أوقاته عن شوب الأكدار. أكثر من الندم والاستغفار والتوبة. يغلب عليه الصمت، يذكر الله بقلبه لا بلسانه. إن سجد أطال السجود والدعاء، امتلأت نفسه بأنوار المعاني، وانكشفت أستار الغيوب، ترادفت نسائم المحبة والشوق، جذبَته، غيبَته عن حسه بالكلية.

صفات الخالق هي الغنى، والقدرة، والعزة، والقوة. الصفات التي تقابلها — لعبيده — هي الفقر، والذل، والعجز، والضعف. تتقابل الصفات برحمة الله، ويقين العبد. يتماهى تمام القدرة في تمام العجز، يمد الله في قلب العبد ما يقابله من أوصاف العلي القدير. يتحقق الاكتمال.

أكثر من التردد على الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والمقامات والمزارات في بحري، وفي أحياء الإسكندرية ومدن مصر وقراها، يقرأ الفاتحة، يؤدي ركعتَي السنة، يجالس المريدين، يقضي أوقاتًا في الحضرات، تأخذه حلقات الذكر.

اختار السير في طريق السلف من التمسك بالكتاب والسنة، وترك البدع والضلالات. دعا لأن يجاوز المسجدُ دورَه مكانًا لأداء الشعائر، يتحول إلى ساحة للعبادة والقراءة والتأمل، يقينه أن مهمة المسجد تعميق عقيدة التوحيد، وتنقيتها مما عَلِق بها من شوائب.

صار من أهل الكشف والأحوال والدعوة والإرشاد والاستمساك بالسنة المطهرة. عظم صيته في بحري، وتناقل الناس في الأحياء والمدن الأخرى فقرات من عظاته. أعرف عن مريديه دوام حضور مجلسه، والإنصات إلى عظاته وإرشاده، والمبادرة إلى تلبية ما يشير به، أو يطلبه، يَلجئون إليه لفهم ما خفي من العلوم المبهمة والأسرار. لا يتصدر المجلس، ولا يختار لنفسه موضعًا، هو يجلس حيث يجد المكان. لا يتكلم إلا ردًّا عن سؤال، وإن تكلم اكتفى ببضع كلمات تؤدي المعنى. إشارة يده تحدد للمريدين تحركهم؛ القعود والقيام والكلام والإصغاء والمغادرة. يربِّي مريديه بالنظر والإشارة، ولي الله البدوي مثله الأعلى

وقدوته، لا يأخذ عنه مريدوه علمه بالعهد، إنما يعلمهم بالنظر، يرنون إلى عينيه، يلبُّون إشاراته، يهبهم فيض علمه وأنواره.

قبل أن يدخل الخلوة يغتسل غسل الجنابة، ويرتدي ثيابًا نظيفة، مكوية، وينوي قلبه التقرب إلى الله، لا يجالس الناس إلا لضرورة. يحرص على قيام الليل، والتهجد فيه، تؤلمه قبضة النوم، تأخذه من الصحو، فيصمت عن ذكر الله. فسَّر كثرة ترديد الشهادتين بأنه لا يعرف متى يفارق الدنيا، ولم يكن يأمن بقاء حياته من وقت صلاة إلى وقت الصلاة التالية. ربما اكتفى بترديد كلمة الله في حضوره مع الناس، وبينه وبين الناس. قد تدخل الأنفاس فمه، فلا تخرج. إذا حان وقت الصلاة، فإنه ينقبض عن كل من حوله، وما حوله، ويهمل كل شيء، ويُقبِل على الوضوء، تأهبًا لأداء الصلاة.

رُوي أن المصلين فارقوا صلاة التراويح وراءه على صيحات استغاثة من الطريق، جرَوا بالخوف، أو بنيَّة الإنقاذ. أَطفئوا النيران في نصبة شاي على الرصيف المقابل. عادوا إلى الجامع، فوجدوا الشيخ وحيدًا، مستغرقًا في صلاته، حتى أنهاها.

قال لمن أظهروا الإشفاق: هل تأخذني نار في الدنيا عن نار الآخرة؟!

صار شيخًا للوقت، لا يأسف — في قول القطب الشبلي — على الفائت، ولا ينتظر الوارد، طريقته هي الاقتداء والإلزام بما في القرآن الكريم، وسنة الرسول، وأقوال الصحابة والتابعين، اعتبره مريدوه شيخ مشايخ الصوفية، وقطب عصره، واعتقده الناس اعتقادًا تامًّا.

يقضي الوقت ما بين الخروج من البيت، والعودة إليه في ارتياد الأسواق، والشراء من المحالِّ، والجلوس على القهاوي، والتوقف — بالفضول — للفرجة على ما يثير الدهشة. يتردد على أسواق العطارين والباب الجديد وشارع الميدان، يقتني ما يستلفت نظره؛ أثر قديم، مسبحة شحب لونها، ساعة بكتينة، حجاب، ما يستهويه من التحف والكتب القديمة.

روي خواصه أنه إذا تناول مالًا فيه شبهة، أو طعامًا يشك في مصدره، فإن الجفاف يصيب حلقه، يعاني النطق، أو يعجز عن الكلام. لم يكن يوافق الشيعة في الكثير من طقوسهم، لكنه كان ينصح بالبكاء إذا واجه المرء مشكلة صعبة، البكاء اعتراف بالضعف، وتنفيس.

شرط على نفسه أن يعيش المريدون كما يعيش هو حياته، إحياء الروح، ومجاهدة النفس، والارتقاء بها، بما تقتضيه من العادات والقراءات والأفكار والأفعال والأقوال والأحوال والأخلاق، يَقصُر توجيهاته على الإيماءة والإشارة، لا الإفاضة في الشرح والتفسير.

رفض أن يكون للضريح صندوق نذور، من يريد فعل الخير عليه أن يتجه بصدقاته إلى المُعوِزين.

يحب لشخصه أن يتوارى خلف مريديه، يلقي عظاته ونصائحه، يشير إلى ما ينبغي أن يفعلوه، لكنه يرفض الخوض في التفصيلات، لكل مريد ظروفه التي تملي عليه تصرفه، ما عليه إلا فعل الشيء الصحيح، وإن أظهر ضيقه إن قصده امرؤ في شيء من أغراض الدنيا.

حتى يقوى المريدون، وينمحي الخوف من قلوبهم؛ حثَّهم على أن يكون توضؤهم أسبق من الوقوف في الحضرة، يُسبِغون الماء على رءوسهم ووجوههم وأذرعتهم وسيقانهم، بما يزيل وساخة الجسد وخطايا النفس، الماء يزيل ما قد يتلبَّس الجسد من الجان والأرواح الشريرة، حتى الصيادون يستطيعون التوضؤ بماء البحر، فهو طَهور.

قَويَت الطريقة، وكثر أتباعها ومريدوها. يطرحون أسئلة، يأملون لها أجوبة. يرضَون بما يمنحه لهم الشيخ من ومضات الخبرة والعظة، وغوامض الأسرار. اعتبروه — تحفُّه الهيبة والجلال — واسطةً بينهم وبين حضرة الله تعالى.

خاف على ضعاف الإيمان من مريديه أن يعتنقوا ما يبعدهم عن طريق التصوف، تهجر الطيور أعشاشها قبل أن تتعلم الطيران، تميل قلوبهم إلى غير الله. دعا خواص مريديه، الأوتاد والنقباء ومَن دونهم، إلى تحفيظ القرآن، وتفقيه الناس في أحكام الشريعة، واتباع السنة. حدد لكل واحد من مريديه ما ينبغي أن يفعله، يتولى عددًا من المريدين، يعلِّمهم، يفقِّههم في أمور الدين، يشير بما يجدر بهم صنعه في مشكلات دنياهم. يقوِّم الضال من أتباعه، يرشده إلى الطريق الصواب. لا يؤنب المريد، ولا يوبخه إلا إن جاوز حد الأدب، للحد شواهد واشتراطات.

ضاقت بأتباعه شوارع بحري وحاراته وأزقَّته.

عرفت ضيقه — في الآونة الأخيرة — من آراء لا تلم بالقضايا المطروحة. استعصى أن يلزم أصحابها السير على نهج محدد، لا يجاوزونه، يلزمون التجرد عما سوى الله، يبتهلون إليه تضرعًا في حال المنع، ويشكرونه في حال العطاء. زال الورع من النفوس، وطُوي بساطه. أدرك أن عليه أن يفعل ما يزيل الغمة، فيسكت الرعد، وتنقشع سحب الأمطار القاتلة. تحل أنوار التوبة والاستغفار والتسليم والزهد والتقوى والقناعة والإخلاص والورع والعرفان والخير وذكر الله تعالى.

أعلم أنه يعيش وقته في حالة من التأمل؛ يحدق في أفق البحر، يرنو إلى القمر، يلوذ بدفء الشمس، يحصي النجوم. تستغرقه الأحوال، الأحوال مواهب إلهية، بداية الحال:

ومضة، بارقة، لمحة، وغيرها من المترادفات. تسبح روحه في بحار الشوق، تنجذب إلى مواطن القرب، تغيب عن كل ما سوى الله. لا شمس ولا قمر، لا ليل ولا نهار، إنما هو نور دائم يضفي على النفس إحساسًا بالراحة والدعة والسكينة، لا يشعر بالتعب، ولا تُعوِزه الحاجة إلى النوم.

وهو يقف على ساحل التمني.

– أحيانًا، يعروني شوق للقاء من أصارحه بما في نفسي.

وفي نبرة كالهمس: أخشى أني سأُضيع العمر في انتظار ما لن يأتي!

– لا تتسول الحكم على فعلك من أحد. أنت خير من يحكم على صحة ما تفعله.

وفي لهجة تحذير: أخشى أن الطريق التي تسير فيها ليست هي الصحيحة.

ومض في عينيه ما يشبه الدمع: إن لم تكن، فالعيب في العين التي قد لا تبصر جيدًا.

ودعت الشيخ، واتجهت ناحية محطة الترام، في شارع محمد كريم.

١٦

أزمعت — قبل ميدان المنشية — دخول ساحة بناية السنانية. اسم السنانية كما تعلم يرجع إلى سنان باشا، خادم السلطان العثماني سليمان الأول. لم تُشيَّد البناية في عهده، ولا بأمر منه، لكنه صمم عشرات المساجد والجوامع والبنايات، وأشرف على إنشائها.

هي إضافة إلى الكثير من المساجد، والخانات، والحمامات، والبنايات التي تقدم الخير لفقراء الناس. أعود — في مكاتب الأوقاف — إلى المراجع والملفات والكتب والمذكرات والرسائل والوثائق ومحاضر التحقيقات، أفيد مما تحمله في تحقيق الانفراجة، تيسر حياة الناس، وتعينهم على فهم الصحيح. كلمات الخضر ألحَّت بما دفعني إلى السعي للقاء آخرين من المتصوفة والفقهاء والعلماء.

حياتي في العبادة والكتب والتلاميذ.

أحزنني تبدد ما في المكتبة من تراث يجب الحفاظ عليه، تسربت الكتب والمخطوطات والوثائق والرقائق، آلاف الأوراق بالعربية والفارسية والتركية والسريانية والأمهرية والعبرية واللاتينية والأرمنية والإنجليزية والفرنسية والروسية والهولندية. أقلام علماء مسلمين ورهبان ومؤرخين تناولت قضايا المسلمين من رؤًى متفقة ومتعارضة، تعمق فائدتها الفرمانات والخرائط والرسائل المتبادلة. بدت لي ذات قيمة علمية، ليس في أمور الوقف وحده، إنما هي مقصد الباحثين لدراسة أحوال المسلمين، ومسلمي مصر خاصة، في توالي العصور، منذ الفتح حتى الآن.

آخر ما شاهدته — في زيارة قريبة — أرفف خشبية غطت الحوائط، عليها كتب ومخطوطات وملفات ووثائق ورسائل، حافلة بقصص الأنبياء والزهاد والحكماء، وكتب الفقه، والأشعار الصوفية والأحزاب والأوراد، وقوام المتصوفة من البداية إلى إنشاء التكوينات، وآداب الحضرة، والوقت، والمقام، والحال، والاستماع، والرسائل التي تناقش

ما يتصل بالتصوف، وقضايا التسليم، وعدم المجادلة، والعبودية والربوبية، والروحانية، وحقيقة الوجود المحمدي، وعلم الباطن، والمشاهدة، والمحبة، والحرية، والفناء الصوفي.

لماذا اختفت؟ من أخذها؟ هل أُودعت في مكان ما، أم أنها ضاعت؟

الرجل الخمسيني وراء المكتب الخالي من الأوراق وأدوات الكتابة. يرتدي صديرية بيضاء مقلمة على قميص بني. غطى رأسه ومعظم وجهه بتلفيعة، خمنت أنه مصاب بشلل في جانب الوجه.

هاتفته، وأنا أجول بنظرتي في الفراغ: أين ذهبت الملفات؟

غالب ارتباكه وهو يشير ناحية النافذة: في المخازن.

عاود الهاتف سؤاله: هل نبحث عنها هناك؟

– أغنت عنها الكتب. الحاجة إليها قليلة.

تعثرَت الكلمات على شفتيه، بدت الحروف ممضوغة.

استعدت ما ألفت العودة إليه؛ الصور، كتب المذاهب الإسلامية، المذكرات، الرسائل، الوصايا، عظات العلماء والفقهاء، أصول الأوقاف والتركات. حتى عندما لم تكن الصور موجودة، لجأ السلف إلى رسمها بتصور ملامحها.

قلت وأنا أتهيأ للمغادرة: الوثائق لا غنى عنها.

لم أجد في المبنى الذي وسمه القِدَم ما كان يحويه من المخطوطات والمؤلفات القديمة، والحديثة، ما يُعنَى بالجذور والأصول، الأحكام الشرعية، وفتاوى الأحوال الشخصية، والمواريث والوصايا، وحيثيات أحكام القضاء، ووثائق ملكية العقارات، والأوقاف على بيوت الله وأفعال الخير والأقربين. خلَت الجدران — أو كادت — مما رأيته قبلًا من الأرفف الممتلئة بالكتب والمجلدات والرسائل الأكاديمية ودوريات الصحف من الأرض إلى السقف. تعرَّت الأرفف المتبقية من الملفات، فوقها المتون والمذكرات والتقارير والبيانات، والخرائط والحواشي وعقود الملكية، والسندات وإيصالات الإيجار، ومحاضر التنازل، وفواتير الترميم والإصلاحات، وسجلات الصادر والوارد، وسجلات المديريات، وسجلات ديوان شورى المعاونة، ووثائق المصالح الحكومية، والمخطوطة الإسكندرية، والقصاصات المودعة في ملفات، والأطلس العربي، وفهارس الاطلاع والمصادر والمراجع، ما يصلني بما كان، كأني لم أتركه.

تنبهت — في اتجاهي ناحية الباب — إلى صوت قرب النافذة. بدت اليمامة — تحت الإفريز — مكوَّمة على ما أدركتُ أنه صغارها. بادلتها نظرات المحبة والإشفاق. ظلت في موضعها، ومضيت إلى الباب.

نزلت الدرجات دون أن أجد من تصورت أنه سيعيننني.

سرت خطوات في اتجاه شارع السنانية، المفضي إلى شارع محمد كريم والكورنيش، ثم ملتُ إلى اليمين، في اتجاه ميدان المنشية.

توقفت لحظات — أول شارع فرنسا — أمام فرشة بائع الصحف على جدار صيدلية جاليتي، بالقرب من الميدان، قرأت العناوين، ثم واصلت السير.

خشيت أن يسرقني الوقت لو أني ملت إلى أيمن الطريق، الأسواق المتوازية والمتقاطعة؛ المغاربة، الطباخين، الخراطين، الحبالين، النقلية، الترك، الخيط، العطارين، المناخلية، المنجدين، الصيارفة، الحدادين.

خلَّفتُ الشارع في اتجاهي إلى ميدان المنشية.

١٧

تساءلت بيني وبين نفسي عن تسمية الشاذلي؛ لماذا؟ مَن اختارها؟

تناهى الهاتف السماوي: إنما أنت الشاذلي، بتشديد الذال، يعني المفرد لخدمتي ومحبتي. أجد خدمة الله ومحبته في التعرف إلى مشكلات الناس، ما توسموا في الأولياء علاجها، أرشدهم إلى الطريق الروحي، فتبدو معالمه واضحة، يقطعون الأسباب التي تشغلهم عن الذات الإلهية، يستوحشون عن كل ما سوى الله، يرجعون إليه، يحافظون على حدوده، يبتعدون عن نواهيه، يجاوزون ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف، وظلمات الهوى إلى نور التقوى، وظلمات السكون إلى شهود المسكون، وظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

ربما — لتقتطف زيارتي ثمارها — أجاوز بحري إلى حي مجاور. أزور ضريح ولي الله ابن أبي رندقة الطرطوشي، في نهاية شارع الباب الأخضر، ناحية باب الكراستة.

أبو رندقة الطرطوشي، عالم جليل ينتسب في موطنه إلى الأندلس، كما انتسب، وينتسب العديد من الفقهاء والعلماء. تعلم مبادئ العلوم في «طرطوشة»، مسقط رأسه، قبل أن يرحل إلى سرقسطة، حيث عائلة أمه. نذر حياته للعلم، لا حرفة تعلَّمها، ولا صنعة حاول التقوُّت منها، حتى التجارة غابت عنه مفرداتها من بيع وشراء.

حصَّل من العلوم ما يعينه على الجلوس إلى الناس، يتكلم بما يعرف، يُبدي الآراء في أحوال الدين والسياسة ومشكلات الحياة، يسألون ويجيب، يوضح ما غمض من أمور دنياهم وآخرتهم.

نفسه التواقة دفعته للاستزادة من المعرفة. أزمع أن يرحل — كما فعل الكثير من علماء الأندلس، وكل من انتوى أداء فريضة الحج — إلى الشرق. هو واحد من الآلاف الذين تركوا بلادهم بعد توالي سقوط دول الطوائف. مضى مع مئات الأندلسيين والمغاربة في رحلة

النفي إلى مصر، ثم إلى مكة لتحقيق مقدمة غاياته. عاد بعدها إلى وطنه، أمضى ثلاثة عشر عامًا، ثم عاود الرحيل إلى المشرق؛ مدفوعًا بالحنين، وبما حصَّله من العلم، ومجالسه مع العلماء والفقهاء.

مال — في طريق العودة من مكة — إلى بغداد، المركز المهم لعلوم الدين الإسلامي آنذاك. أقام سنوات تردَّد فيها على معاهد العلم، وحلقات الدرس في المساجد، التقى العلماء الكبار؛ أبا حامد الغزالي وأبا إسحاق الشيرازي وغيرهما، تتلمذ عليهم، وأخذ عنهم. حصَّل من المعرفة ما يمهد طريقه، ثم انتقل إلى البصرة، فالشام.

عرف من دقائق العلوم والمعارف ما لم يعرفه معظم علماء عصره. أذكر قول عالم دمشقي: «إن الذي عند أبي بكر الطرطوشي من العلم هو الذي عند الناس، والذي عنده مما ليس عند غيره هو دينه.»

لم تأذن صراحته، والتزامه قولة الحق، أن يظل في الشام، بعد أن استقرت حياته فيها. رحل إلى مصر، اختار مدينة الإسكندرية، درَّس لناسها على المذهب المالكي، صارت مُقامَه، فلم يبرحها. سُئل عن ارتياحه للبقاء في المدينة، قال: وجدت قومًا ضالين فكنت سبب هدايتهم.

اجتمع إليه الكثير من الطلاب والمريدين وعوام الناس، يفيدون من دروسه وعظاته، يداومون — بإرشاده — على القراءة والاطلاع، يقرءون كتب الصوفية، منذ «سفر أيوب» إلى كتابات المحدثين؛ إحياء علوم الدين، رسائل إخوان الصفا، الرسالة القشيرية، الحكم العطائية، اللمع، قوت القلوب، اللمع السراج، بوارق الحقائق، الفتوحات المكية، الفيوضات الربانية، فتوح الغيب، الجوهرة في التوحيد، التعرف لمذهب أهل التصوف. يستعيدون تراجم شيوخ التصوف؛ سهل، ذي النون المصري، الحسين بن منصور الحلاج، عمرو المكي، الجنيد، ابن سبعين، الكلاباذي، أبي يزيد البسطامي، هذا الذي عاش لا يريد، ولا يحب، إلا ما أراده الله تعالى، وإن شرب في حياته ما لا نهاية له من شراب المحبة، ما كلَّ ولا ارتوى. أبان عن تواضعه بالقول: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه، فهو متكبر.

سأله تلميذ: متى يكون المرء متواضعًا؟

قال: إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا.

أقدِّر سفر ولي الله الطرطوشي من الإسكندرية إلى القاهرة. مضى إلى دار الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، بما في داخله من ميل إلى الوعظ والصراحة التي ربما

تثير الغضب. أذكر رده على الإمام أبي حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين»، وما حدد به الصلة بين الحاكم والرعية في كتابه «سراج الملوك»، ما يجب أن ينتبه إليه الملك والوزير والوالي والقاضي والعلماء والصالحون. السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته، فأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطَوا الحق فيما بينهم. إذا جار السلطان انتشر الجور، وعمَّ العباد، فرقَّت ديانتهم، واضمحلت ثرواتهم، ففشت فيهم المعاصي، وذهبت أمانتهم، وضعفت النفوس، وقنطت القلوب، فمنعوا الحق، وتعاطَوا الباطل، وبخسوا المكيال والميزان.

بادر الجمالي بالسلام، استطرد بعد أن رد الوزير سلامه: «أيها الملك، إن الله سبحانه وتعالى قد أحلَّك محلًّا عاليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملَّكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرضَ أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترضَ أن يكون أحد أولى بالشكر منك.»

كوَّر الطرطوشي قبضته على مقبض العصا.

– ليس الشكر باللسان، لكنه بالأفعال والإحسان، فاتقِ الله فيما خوَّلك من هذه الأمة، فافتح الباب، وسهِّل الحجاب، وانصر المظلوم، أعانك الله على ما ولاك، وجعلك كهفًا للملهوف، وأمانًا للخائف.

أظهر الأفضل تقبله النصيحة.

غادر الطرطوشي مجلس الوزير، وفي داخله شك أن الملامح الباسمة تخفي نفسًا معتمة. عاد إلى حلقات تدريسه في الإسكندرية، لم تقتصر — كما بدأت — تحت بيته، امتدت إلى الخلاء والحدائق، وزاد عدد الطلاب والمريدين. أعد الطرطوشي نفسه لمواصلة ما بدأ حتى نهاية العمر، اقتصرت علاقته على تلاميذه، لا يتركهم إلى ذوي السلطة؛ ما أحنق قاضي المدينة أبا حديد، الذي استبدل الناس مجلس الطرطوشي بمجلسه. عمَّق مشاعرَ أبي حديد ملاحظاتُ الولي حول الترف الذي أحاط به القاضي نفسه، بينما الناس في فقر. أيقظ القاضي في نفس الأفضل ما كان غافيًا، فاعتقل الطرطوشي في مسجد الرصد الجنوبي بالمقطم، لا يتصل بأحد، عدا الخادم الذي أقام معه.

ظل الشيخ في معتقله، لم يبرحه، ولا عاد إلى الإسكندرية إلا بعد أن لقي الأفضل شاهنشاه مصرعه.

عاد الرجل إلى حلقات دروسه، تتلمذ على يديه الكثير من العلماء؛ أبو بكر بن العربي، المهدي بن تومرت، القاضي عياض، أبو الطاهر بن عوف بن مكي، سند بن عنان، وغيرهم من نوابغ العلماء. أمضى جانبًا كبيرًا من وقته في تأليف كتاب «سراج الملوك»، أربعة وستون

فصلًا، قوامها العظات التي تُقال للملوك، ومقامات العلماء والصالحين عند السلاطين والأمراء، وعلاقات التابعين بمن هم أدنى، حتى ناس الأسواق.

قرأت «سراج الملوك»، كما قرأت مؤلفات الطرطوشي الأخرى، اثنين وعشرين مؤلفًا، تدور حول الكثير من أمور الدين والدنيا.

رحل الشيخ عن الدنيا في السادسة والستين من العمر. خلَفَه في مدرسته تلميذه سند بن عنان. نقل الكثير مما تعلمه عن أستاذه، واحتذاه في تعامله مع العلماء والطلاب وعامة الناس. تلاه خلفاء آخرون، إلى الخليفة الحالي بهجت المجذوب.

أزمعت زيارته بعد أن توضحت لي الصورة كاملة، تناثر الروايات عن حقيقة ما حدث، جعل الجلوس إلى الخليفة ضرورة. إذا مال المريدون إلى رفض أحقية الابن الأكبر بالمشيخة بعد موت أبيه، فإن الحفاظ على الطريقة أفضل في كل الأحوال من الخروج عن الطاعة.

لم تتبدل هيئة المكان عما رأيته في زياراتي السابقة، الأبواب والأقواس والأسقف من الخشب، الأفاريز والزوايا تعاني التشقق، المنور ذو النوافذ يضيء — حتى الليل — صحن المسجد. ضريح ولي الله أبي بكر الطرطوشي في حجرة إلى يسار القبلة. الإهمال على حاله. لم تعد تقربه يد بالتنظيف والرعاية، لحقته تشوهات فكادت تندثر معالمه.

قرأت الفاتحة لولي الله، ولتلميذه محمد الأسعد في ضريحه المجاور.

وقف بهجت المجذوب على رأس الحفرة الترابية، حتى انتهى المريدون من توسيد جثمان أبيه القبر، بدءوا في إهالة التراب بالجاروف، حتى تغطى القبر تمامًا. أطلت نظرات متسائلة في أعين الواقفين، عشرات من عارفي فضل الشيخ، تلاصقوا في زحمة، وطوَوا الأعلام، كأنهم ينتظرون ما يقرره بهجت، أشار بيده ناحية باب الحوش، واتجه إليه.

أدار الناس رءوسهم ناحيته، تأملوه بنظرة فاحصة، تابعوا خطواته البطيئة حتى غيبته انحناءة الطريق.

قلَّب في دولاب أبيه، أخرج العباءة البيضاء ذات الإطار الأسود، كان أبوه محسن المجذوب قد استبدل بالعباءة جلبابًا أهداه له حمدون شكر الله شيخ الطريقة الوفائية حين عودته من الحج، لم يشغله أن العباءة كانت فضفاضة على جسده، همه أن يرتدي ثيابه، لاحظ خواص مريديه حيرته في كيفية إسدال العباءة على كتفيه، ساعدوه حتى اطمأن إلى اتساقها على جسده.

رجَّح الخواص أن يكون تعلقه بأبيه هو السبب لتصرفه، ما كان في نفسه يختلف عن هذا المعنى. أزمع — حين أقعد أباه مرضُ الموت — أن يفعل كل ما كان يفعله، يستعير نبرة صوته، يقلد حركاته، حتى مفردات كلماته يحرص أن يعبر بها.

اختار حجرة أبيه يقيم فيها، أخلى حجرته للخواص، تطل على شارع خير الله بك.

مال خطوات قبل نهاية صفر باشا، ناحية قهوة أنح. دخل المقهى، اختار طاولة تبعد عن المدخل، وعن زحام الملتفِّين حول طاولات لاعبي الطاولة والكوتشينة، تشمم رائحة بول، أدرك أن الباب مجاور لدورة مياه، اتجه إلى الناحية المقابلة. جلس على الطاولة المجاورة للباب، وألقى التحية. اعتاد الشيخ المجذوب الجلوس في الموضع نفسه، يقصده من لديه شكاية أو مطلب.

دار بالنظر حوله، يحاول اجتذاب النظرات المتسائلة.

بادر بالجلوس إلى جانبه، عدد من رواد المقهى، ومن الطريق، ساعة أو أقل، ثم استأذن في الانصراف، خشي أن يزول الحاجز بينه وبين الناس، طبيعة العلاقة التي حرص أبوه عليها، حتى رحل.

التوريث تقرُّه العقيدة والشريعة. من حق الابن البكر أن يَخلُف أباه في مشيخة الطريقة، هو الوريث الجدير بخلافة أبيه.

إنما جعل من نفسه ربانًا للسفينة، باختيار الخاصة من المريدين، همه أن يصبح الامتداد للسلسلة الطيبة، بنسبها وأفعالها وأقوالها.

أخذ مريدو الطريقة على أبيه العهد، العهد هو البيعة، البيعة عقد إلزام، يُلزِم المتعاقدين بالوفاء، الشيخ بالنصيحة وحسن التوجيه، والمريد بالإصغاء والعمل بما تطلبه حكمة الشيخ. من ينقض العهد كمن يرتد عن دين الله. أزمع أن تكون كل تصرفاته قائمة على هذه الحقيقة التي لم يكن يعرفها. تملَّكه شعور أن الأمر سينتهي على نحو جيد.

قرأ ما أعاره له الخواص من كتب تتناول آداب الطريقة، تعلم الكثير من العبادات والمجاهدات الروحية والمقامات والأحوال والكرامات والتجلي. قرأ في علوم الشريعة والحديث والتفسير وأصول الدين وفقه اللغة. حاول إحكام القراءة الصحيحة، ضبط مخارج الحروف، مراعاة الوقف، والوصل، والمد، والغَن. تمنى أن توضع جميع الكرامات — كما كانت لولي الله الطرطوشي — تحت سجادته. عرف أن الإتيان بالكرامات صفة ضرورية لتحقق المشيخة، وربما الولاية.

ترك لخواصه إفهام المريدين أنه ورث الأسرار الخفية من أبيه، شيخ الطريقة وراعيها.

كان المريدون ينفذون أوامر أبيه، لا يشغلهم تعب ولا مشقة، ما يعنيهم أن يُثبتوا خضوعهم لإرادة الشيخ. تبدل الأمر، فمالت نفوسهم إلى الاستيضاح وإثارة الأسئلة. يرفعون الرءوس دون خوف، يرفضون العمل من أصله، ويُؤثِرون البطالة، والتنقل بين المساجد والحضرات والمقاهي. آله ترامي صوت بالقول إنه لا يستحق العباءة التي يرتديها.

انفضَّ معظم المريدين. انصرفوا عنه، وأعرضوا عن تعاليمه. ثمة من طالب ما رآه لنفسه من حق شرعي في تولي أمور الطريقة.

بلغني أن الشيخ تاج الدين الخضيري ابتعد عن الطريقة؛ لم يعد يشارك في الحضرات، ولا في المناسبات التي تخص الطريقة. ساءه أن تُورَّث الولاية للأبناء، ربما تبعه أتباع آخرون.

جُعلَت موافقته — كما أوصى الخواص — شرطًا لقيام المريدين بعمل ما، لا يفعلون أي شيء ما لم يحصلوا على موافقته. هدَّد بعقاب من يتصرف من نفسه، أو لا يحسن تنفيذ ما يطلب.

أحس أنه بلا حول ولا قوة، لا يستطيع أن يفرض شرطًا ما، لا يستطيع أن يبدل أحوال الناس، ما لم يبدلوا أحوالهم. ضاقت دنياه بالعزلة والوحدة والظلمة والظل والتخفي والحذر والترقب والانتظار، والأشباح والأطياف والكوابيس، والتكتم والفزع.

الشاذلية كما تعلم تأخذ بالقرابة الشعائرية، شيخ الطريقة من تبين قدراته في تحمل المسئولية، توظيف إمكاناته ومواهبه في تيسير الصعب.

أعرف أن الشيخ عبد الحكيم المجذوب هو الذي بايع — قبل أن يقبضه الله — ولده على الخلافة. أذاع ذلك أمام خاصة المريدين، تأكيدًا للتأييد والمساندة، بعد أن تفقد كلماته — برحيله — تأثيرها. وراثة الابن لأبيه تعني انتقال الاعتقاد من الشيخ إلى أكبر أبنائه، ومبايعته خليفة لأبيه. الصوفية الحقيقية تفضِّل قرابة الشعائر بدلًا من قرابة الأبوة، للأب الطبيعي أبناء لا يزيدون عادةً عن عدد أصابع اليدين، أما الأب الروحي فأبناؤه، كل أبنائه الروحيين من أبناء الطريقة. مشيخة الطريقة تكليف من السماء، وليست بالتعيين. شيخ الطريقة لا يأتي بالوراثة ولا بالتعيين، إنما تختاره قلوب مريديه، يجدون فيه الراعي والقدوة والمثل، لا أحد يساوي شيخ الطريقة في مقامه، حتى يرثه — بعد رحيله — من يساويه، أو يقاربه، في العلم وتقوى الله.

قلت: تعلم أني لم أستخلف أحدًا من أبنائي الذكور.

وأغمضت عينيَّ بالتذكر الجميل: اخترت أبا العباس المرسي لأنه الأكثر علمًا، والأشد قدرة على رعاية المريدين.

ونقرت على الطاولة بسبابتي: طبيعي أن نغرق في البحر لو لم نكن نجيد السباحة.
قال بهجت المجذوب: لم أبدِّل شعيرة ألفوها أيام أبي.
– اعتادوا العيش في خلافة أبيك. من حقك أن ترثه، لكنهم ليسوا من الميراث.
وافتعلتُ ابتسامة: هم مريدو الطريقة، وليسوا مريدي المشايخ.
وهو يحك ظهر يده بظفر متوتر: يحزنني أن رءوسهم تنحني للصلاة، لكن النفوس طافحة بالكره.
– إذا كان حبك الله صادقًا فلن تجد ما يرقى إليه من حب البشر!

١٨

عبرت قضبان الترام في اتجاه البحر. أبطأت في انحناءة الطريق. أعدت تأمل ما حولي، وواصلت السير.

لأن حكاية ولي الله الزاهدي — هذه هي التسمية التي أطلقها على نفسه، ورددها الناس — شغلت أولياء الله في أضرحتهم ومقاماتهم، قبل أن نبدأ في فك الخيوط المتشابكة، نعيد الأمر إلى بداياته، نتعرف إلى ما يحيطه من ملابسات، فقد قصدت ضريح الزاهدي في الساحة الخلاء، على الساحل، بين الشاطئ والبحر، بين بحري وأحياء الرمل. اعتاد المصلون تقافز النوارس فوق قبته.

همَّني أن أتعرف إلى بواعث البدايات، وتناميها، حتى حدث ما لم يَدُر في بال أحد، من رسو حكايات الترفد إلى ما انتهت إليه، وخفوت الأضواء الساطعة حتى التلاشي.

كان الرجال بلا طريقة ينتسبون إليها.

يتناثرون في الجوامع والزوايا، وأمام الأضرحة والمقامات، يترددون على أعتاب أولياء الله، ومقاماتهم، ويشاركون في موالدهم.

حين بنَوا القبر في الساحة الخلاء، تعددت الاجتهادات حول المعنى، والشخص الذي اختير الموضع لمقامه الأبدي، لا يعرف ناس بحري شيئًا ذا بال عن نشأته، وحياته الأولى، وإن أجمعت الروايات أنه لم يتدرج على المعرفة، إنما خُلق عليها، وتلقى أسرارها. لم يجلس إلى ولي، ولا تلقى العلم عنه.

لم يكن من آل البيت، ولا الصحابة، ولا أقطاب الأولياء. سيرته غير معروفة، وثمة ترجيحات بأنه مقطوع نذره، فهو غير مدفون في الضريح.

الرواية التي مال الناس إلى تصديقها أنه كان يلقي الطراحة على امتداد الساحل، يعود بحصيلتها إلى بيته، في خلاء يبعد عن الإسكندرية. بدَّل مألوف حياته عندما سمع هاتفًا يهتف به، ينبهه إلى ما غاب عنه. ترك الدنيا، اتجه إلى الزهد والتقشف والنسك والاعتكاف.

قيل إنه جاوز درجات الولاية، فبلغ الصديقية. يعرف دخائل النفوس وما تخفيه الصدور، ويحكم على المرء بمجرد رؤيته. يرى ما لا يراه الناس، يدخل الأشياء، ويخرج منها، ويسير فوقها، ويحلِّق في السموات دون عناء. تماهى — بالصدق — ظاهره وباطنه، وحظي بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

طال عمره حتى تخرج على يديه الكثير من الأوتاد والأخيار والنجباء والبدلاء والنقباء والمريدين والأحباب.

رُوي أنه يوم وفاته قال لخاصة مريديه إن هاتفًا زاره في المنام، وهمس في أذنه: آن الأوان للمحب كي يلتقي حبيبه.

تهيأ للترقي.

قال الخواص إنه لما أتى أجله، نودي في شوارع الإسكندرية أن الشيخ الزاهدي مات، وأن جنازته ستمضي من ميدان أبي العباس إلى جامع الشيخ، للصلاة عليه، ثم يُدفن الجثمان في موضع — حدَّده — يطل على البحر، المنطقة الواصلة بين نهاية بحري وأحياء المدينة.

تحدَّث الخواص عن طيور كالنوارس رفرفت على موكب جنازة الزاهدي، حلَّقت بعيدًا، وعادت، طار بمشيعيه إلى الناحية التي اختارها موضعًا لدفنه.

قيل إنه أحب الخلاء في حياته، فتمناه بعد الموت، وقيل إنه هو الذي اختار موضع ضريحه بنفسه، وحدد مساحة الحرم الذي يحيط به؛ أرض خلاء، لم يشر إلى أصحابها، عُني بإنشاء الضريح المكسو بالستان الأزرق، إلى جانبه صندوق خشبي باللون نفسه للنذور.

لزم الخضوع من يومها عشرات الدراويش، قدموا من تناثرهم في مواضع الأئمة، أقاموا حول الضريح، يرددون ما اعتادوا إنشاده من أدعية وابتهالات ومدائح.

حرصوا — في أوقات لزوم الساحة — أن يقتربوا من الضريح، فينالوا القدر الأوفى من البركة، ويحصلوا على المزيد من النور والرضا. قالوا إن روح سيدنا الخضر تلبست ساكن الضريح، أمرته بفعل ما فيه خير العباد والبلاد. حذروا من يحاولون التعدي على حمى ولي الله، فإنهم يضعون بأنفسهم نهاية حياتهم.

أحاطوا نهايات الساحة بسور كبير، بابه الوحيد يدخل منه مريدو الولي ويخرجون، لا يُقدِم أتباع الطرق الأخرى على الفعل نفسه إلا بشروط. لكي تتحقق الأخوة، فلا بد أن نقبل بها، انحراف المريد عن الطريق التي اختارها له وليُّه، هو مسئولية الولي، يحذره، أو يعاقبه، يقطعه بسيف الطريقة، لا يعني المريد إن اتهمه الناس بما ليس فيه، هو بريء أمام الله، وفي قلب الولي. المحب لا يغار من المحبين الآخرين، ولا يسلم قلبه للضغينة والعداء.

جعلوا للطريقة بيرقها، وعلمها الخاص، ألفوا القصائد والأغنيات التي روجوا بها لكرامات ولي الله الزاهدي ومكاشفاته وفيوضاته وإشراقاته الكاشفة، هو الملجأ والملاذ، يهب النصيحة والبركة والعلاج والدواء لكل من يقصده من الذين عانَوا العلل.

جعل لمريديه لغة خاصة، مفردات ومصطلحات وتعبيرات، يتبادلونها فيما بينهم، يعرفون — وحدهم — معانيها، تَغمُض، أو تغيب، في أسماع الآخرين، فلا تشيع أسرار الطريقة في غير أهلها، ومنعًا للدخيل بين الطريقة، فلا يعرف ماذا يشغلهم، ولا ماذا يتدبرون، ويسعَون إلى تحقيقه. يغلبهم الوجد، فيتكلمون اللغة الخاصة التي تعلموها من الولي، لغة غير مفهومة للناس، وإن اطمأنوا لها.

أظهر الناس دهشتهم، فلا يعرفون سوى العربية، سمَّوا اللغةَ الغريبة رطانةً، وانصرفوا عن سماعها.

قال أتباع الولي للنظرات المندهشة، والمستغربة، إنها لغة التخاطب بين ولي الله وبينهم، خصَّهم بعلمها، فلا يعرف سواهم مفرداتها وتركيباتها. كان يتعمد إخفاء المعاني الكبيرة، لا يكشف عنها لغير خواص المريدين والسالكين، يخشى من إساءة الفهم، أو الإفشاء بغير المعاني الحقيقية، يكتفي بالإيماءات والتلميحات والإشارات، وإن خضع كل مريديه لطقوس وأسرار، تقتصر عليهم، لا يأذن بأن يعرفها سواهم.

ما لاحظه مريدو الزاهدي ومحاسيبه، وأحفَظَهم على مريدي آل البيت، والأقطاب من أولياء الله؛ أنهم لا يشاركون في احتفالات مولده. أخضعوا أنفسهم لولاية الشاذلي والمرسي وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وكظمان والبدوي والدسوقي والتيجاني وخضر وغيرهم من الأقطاب، لكل جماعة سجادتها المعتمدة، وأعلامها وبيارقها، والإيقاعات التي تفرق كل طريقة عن الأخرى، والآلات التي تكاد تقتصر عليها، يدينون بالولاء لمن اختبروا مكاشفاتهم وكراماتهم، وأنسوا إلى ريحهم الطيبة، لكن ولاية الزاهدي — في يقينهم — بلا جذور تنتسب إليها.

كتب مريدو الزاهدي مؤلفات تناولت حياته، ونسبت إليه من الخوارق والمعجزات ما يضعه في مكانة متقدمة بين الأولياء. قالوا: نحن لا نقرأ عن ولينا، إنما نقرأ له. هو رحل،

لكنه ينصحنا، ويدلنا إلى الطريق الصحيحة. وقالوا: القراءة لغير القطب تصدمنا فيما تعلمناه، وتشوِّش على عقولنا.

دل تلاميذه على طرق العبادات والمجاهدات والرياضات، وعلى أحوال المراقبة والقرب والوصال، والخوف والرجاء، والشوق والأنس والطمأنينة وغيرها. أرجع التلاميذ بعض العبارات التي تحمل عنفًا أو قسوة إلى أحوال تملكت الشيخ، فعباراته صدرت عن إرادة لا تخصه.

تداولوا الخوارق والمعجزات المنسوبة إلى ولي الله، رقي مراحل السلوك، بدايةً من مجاهدة النفس، فتعدُّد المقامات والأحوال، حتى منازل القرب. انتهى إلى ما يرى الناس تأثيراته، يجدون في الولي قطبًا عالي المكانة، تجلى له الحق بكل أسمائه الحسنى، وهبه من نوره ما ساعده على كشف الماضي والحاضر، والتنبؤ بالمستقبل، أعطاه علم أسرار المفاتيح على اختلافها.

صار مأوًى لتلاميذه، يؤمنون بأفعاله، يلتمسون في حضرته النصفة والمدد، وما بالجنة من النعيم الدائم؛ أنهار اللبن والعسل والخمر، والأشجار والأنوار وأنواع الكرامة والخدم والغلمان والحور العين، يكنسون تراب المقام، يقبضونه في أيديهم، يضعونه في جيوبهم.

اعتاد التلاميذ الوقوف في ساحة ضريحه، يشير المريض إلى موضع الألم في جسده، ويتمنى الشفاء، من يستغث بالولي للبرء من المرض، زال المرض بعون الله من جسده، لا يرى يد الولي حتى خواص تلاميذه، تمسِّد مواضع الألم فيغيب، كأنه لم يكن.

رُويَت حكايات عن قدرته على التبرئة من مرض الموت، وتجفيف مياه البحر، وتحويل الماء المالح إلى عذب، وقطع المسافات البعيدة في ارتجافة رمش، والطيران في السماء، والوجود في أكثر من مكان في وقت واحد، وإخضاع الحيوانات المتوحشة والجان. صلته بالجان لا تقتصر على مخاطبتهم، والتوسل لرد ما يعدُّونه لأذى الناس، إنما هو يأمر، فيلبي الجن أوامره.

قيل إن ما يُنسب إليه من أفعال، استمده من قوًى إلهية يعجز البشر عن إدراكها. وكانت عيناه تريان أشياء لا يراها مريدوه، كأنه ينظر بعشرات الأعين، لا يفلت حتى ما لا يتصور أحد أنه رآه.

تعالت ذات ضحًى صيحات الواقفين على الكورنيش الحجري، أمام المينا الشرقية، لسقوط صياد سنارة من فوق الصخور اللزقة، بدا أن صدمة وقوعه في المياه أفقدته الوعي. قبل أن يحاول الناس إنقاذه، امتدت يد تنتزع الصياد من الموج المرتطم بالصخور.

أدرك الناس أن ما حدث هو بركة من ولي الله.

عرف عنه الناس إمكانية تصرفه في الكون، رآه المريدون يخاطب طيور الساحة، والطيور تجاوبه، هي لغة الطير وليست لغة البشر، تعكس تصرفات الطير ما بين سكون وتحليق وأفعال تفاجئ الناس باستجابة الطير لمخاطبة ولي الله، واستجابتها لأوامره.

أهم ما يمتلكه سيطرة مذهلة على الأفاعي والثعابين والحيات، يومئ لها بفعل الخير، أو يتغاضى عن أذاها لمن يستحقون الأذى.

الله هو الذي يهب القدرة على الكرامات والمكاشفات لمن يشاء من عباده، يمدهم بما يعينهم على قضاء حاجات الناس، والتحرك بالأفعال لإصلاح أمور الناس، وحمل أثقالهم. من يقف على المقام وله حاجة، فلا بد أن تُقضى.

لم يهب الزاهدي الولاية لنفسه، إن حدث، فقد منحتها له القوى العلوية، ثبتت في ذاكرته المقامات والأحوال والسلوك، مثل المحبة والرجاء والخوف والرضا والصدق والتوكل، أملاها على تصرفاته، يعبُر — بلا مشقة السباحة — بحار الطريقة، يجاوز الترقي في المقامات ليصبح قطبًا، وليًّا، عالي المكانة.

قطع درجات البعد والانقطاع — في روايات مريديه — وتجاوزها، دخل في الصفات الخفية، وفي درجات القرب، وحدوث الترقي الحقيقي، تدرج في أحوال المراقبة والقرب والمحبة، والخوف والرجاء، والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين، بلغ في اجتهاداته مرحلة المكاشفات والرؤى الروحية. رقَت به أفعاله إلى الأفق المبين، نهاية مقام القلب.

رد أقطاب الطريقة ما أثارته الفرق الأخرى من شكوك وتوجسات، ما نُسب إلى الولي من أفعال تحوطها الظلال، دافعوا عنه بكل ما أوتوا من قدرة على الإقناع، أذاعوا الحكايات التي ترفع من قدر وليهم، وتنسب إليه مظاهر القوة والخوارق والمعجزات، ضربوا مريدًا في الطريقة الشاذلية، ظل على رفضه لولاية الزاهدي. ترصدوا له في انحناءة الطريق إلى الشاطبي، زايلوه بعد أن فقدَ القدرة على الحركة تمامًا، نقله الناس إلى المستشفى الجامعي.

الولد خليل بداية سعي أولياء الله لقطع دابر المشكلة، فلا يشرف بالولاية إلا من يؤهله لها يقينه الديني، وما نشأ عليه من زهد في متاع الدنيا، ومعرفة بالأصول، وتذوق معاني اسمه الصمد.

أعلم أنه حين اشتد الكبر والمرض على الزاهدي، اصطنع خادمًا، ليحل بدلًا منه في إمامة المريدين، والقاصدين من الغلابة والمنكسرين وطالبي المدد.

تشفع المعلم عبد الله البنط للزاهدي كي يبرئ الله «خليل»، ابنه الوحيد، من مرض أقعده عن الحركة، نذر إن نهض الولد من مرضه، أن يفرغه لخدمة صاحب المقام، ينظف

حول المقصورة، والميضة، يمسح المياه التي يخلِّفها وضوء المصلين، يتولى تنظيف المقام ورعايته، يمد الحصير في الساحة المحيطة، يشتري ما يحتاجه من زيت الإضاءة واللمبات والشموع والبخور والمكانس، ينظِّم تردد الناس. كانوا قد زادوا بحيث يصعب عدهم.

اصطفى الزاهدي الولد خليل لحضرة أنسه، قرَّبه، وخصَّه بكلماته وتعاليمه وتوجيهاته ونصائحه، ترك له أمر تدبير المقام، وما يحتاج إليه، وتلبية احتياجات المترددين عليه، إفادة من الصلة الكريمة بين الذات الإلهية وبينه.

ظل خليل على صلة بالقطب، يلتقيه في المنام، وفي لحظات الصحو التي يستغرقها الشرود، يوصيه بما يجب فعله، يحذره مما قد يشوب أداء الطريقة.

لازم خدمته، وأزمع ألا يفارقه.

رأى من أحوال الزاهدي ما دفعه إلى الإيمان بولايته، بأقواله وتصرفاته، وما يشغل قلبه من محبة الناس.

أودع في نفسه أسرار الزاهدي، كتمها كأنها أسراره الشخصية، وإن رُوي الكثير عن ميله إلى حياة النسك والتقشف والزهد، تمضي الأيام فلا يدخل جوفَه شرابٌ ولا طعام، تتوالى قراءاته في كتاب الله، يرهقه التعب، أو تشتد حاجته إلى النوم. يتجه — بعينيه وهتافه — إلى من يراه هو وحده، يطلب المدد، تعروه في اللحظة التالية طمأنينة وهدوء، يُقبِل على ما بين يديه من قراءات، كأنه قد بدأ في اللحظة نفسها.

بعد وفاة الزاهدي، أشرف الخادم على تجهيزه بنفسه، وصلى عليه، وسعى وراءه حتى وُسِّد الترابَ.

لزم خليل خدمة مقام الزاهدي. أزمع أن يُمضي حياته إلى جوار المقام، لا يتركه حتى يأتي الأجل.

أهم ما عُني به ترغيب الزوار في صاحب المقام، يروي ما ثبت في ذاكرته من مكاشفات الولي وبركاته. وكان أجمل ما يعتز به الخادم متعلقات الشيخ؛ الجبة، القفطان، العمامة، النظارة الطبية، الحذاء، العصا، المسبحة، المسواك، معجون الأسنان، فرشاة الحلاقة، المناديل الورقية، يجفف بها عرقه.

أسند الخادم إلى نفسه مهمة التعريف بولي الله، لمن غابت عنه مكانته بين أهل الإسكندرية والمترددين على مقامات علمائها، تنقَّل بين موالد الأولياء، وتطوح في حلقات الذكر، تكلم عن أصل ولي الله، ونسبه، ومن أوحى إليه بإنشاء الطريقة، وماذا تحقق للناس

على يديه، والكرامات والمناقب التي تحققت بها فوائد كثيرة. ما يعرفه من أسرار الزاهدي هوامش على متن الخوارق التي ينفرد بها ولي الله، يصعب أن يحيط بها بشر عادي؛ لأنها وليدة الصلة بين الحضرة الإلهية والولي.

حكى خليل من سيرة القطب ما لا يعرفه الناس، ما لا يبلغه أحد من تاريخه، نسب إلى وليه ما لا يدخل في حصر حاصر. زاد إقبال الناس على زيارة الضريح، والْتماس البرء من العلل، والتخلص من المظالم والشرور، والتفريج عن ضيق النفس والقلق والخوف، واستمالة من يضن بحبه، وإلحاق الأذى بمن بادر بالشر، ومحو مرتكب الكبائر بالكلية.

فتح لي الأوتاد والنقباء والمريدون — ليلة قدومي إلى بحري — أولى الصفحات، فسهل عليَّ تقليب الكتاب حتى نهايته، والتصرف وفق ما يمليه خلاص بحري من مدعي الولاية.

أهمل الخادم أن تكون لمولد الزاهدي — مثل الطرق الأخرى — سرادقات خاصة، يعلو فيها الإنشاد والمديح والشروح والأوراد والأحزاب والقصائد، أجاد توزيع المريدين في الساحة الخلوية، بدَوا حشدًا هائلًا، يعمقه حلقات الذكر وسرادقات الإنشاد وجماعات المنشدين، وإيقاعات الأبواق والنايات والمزامير والصنوج والمندولين والدفوف.

جماعات المريدين تخرج في مواكب، تعلوها الشارات والأعلام، تردد الأهازيج والأغنيات، تطيل التوقف أمام المواضع التي يعرفون أن ولي الله زارها، مر بها، أو أقام فيها. هي مواضع نالت بركة، يجد فيها المريدون مزارات تخصهم، يؤدون الطقوس التي تختلف عن طقوس الفرق الأخرى.

لم تعد إقامة المريدين تقتصر على السرادقات والخيام ومداخل البيوت، ولا في طريق الكورنيش، والشوارع الضيقة الجانبية، تناثروا في الأرجاء؛ ينامون على الأرصفة، يأكلون جماعات وفرادى، يُلقون المخلفات، ويقضون حاجتهم، لصق الجدران، وعلى الأرصفة، وفي قلب الطريق.

حاول خليل أن يضيف إلى الطريقة، ويغيِّر. لما غلبه اليأس أزمع المسايرة، وإبقاء الحال على ما هو عليه، حتى يأذن الله بالتغير الذي يأمله.

ضاق مأمور قسم الجمرك بالحال، فأوقف الجلوة التي تحتفل بمولد ولي الله. كانت طلائعها تخطو ناحية شارع الأباصيري. أمر أن يقتصر احتفال المولد على مساحة الأرض المطلة على البحر، فيه تُقام السرادقات والخيام والأكشاك، تعلو الزينات، ترتفع إيقاعات الطبول والدفوف والمزامير، لا يزاحمون مريدي أولياء الله في ترددهم على ميدان أبي العباس

وميدان الأئمة، لا يزورون مساجدهم، فيطلبون ما خصهم به الله من الشفاعة والنصفة والمدد.

حذره خليل من أن يتعرض لاحتفالات مولد الولي، أو لمقامه، أو ضريحه، تحدث عن قدرته على إيذاء من يتعرض لسيرته، أو لضريحه، بالإساءة. أرجع المأمور تحذيرات الخادم إلى الخرافة وأفعال السحر.

ابتلع الضابط كلماته، ودخل في حالة توبة، عندما نزل من السماء — في رواية أتباعه — ضوء خاطف، لم يتبين الناس تفصيلاته. أكل بنيرانه ثلاثة أو أربعة من جنوده، كادت النيران تلامس ثيابه، لولا لطف الله، صدمة ما رأى أذهلته عن نفسه، صارت التوبة هي الملاذ الذي احتمى به.

أخذ خليل على من يقصدون المقام أنهم لا يزكون طلباتهم من ولي الله، لا يتوسلون بهدايا لشفاعته وكراماته، كي يبرءوا من المرض، ويتجنبوا الأذى، ويُنصَفوا من الظلم، ويستعيدوا الحقوق. تقاطر مريدو الزاهدي ومحاسيبه على الضريح للتبرك، وقراءة الأوراد والأذكار، يذبحون على أعتاب المقام ما نذروه من العجول الصغيرة والخراف والماعز، ربما اكتفى أحدهم — لِقلة حيلته — بذبح إوزة.

قدم الكثيرون من خارج الإسكندرية، أخذتهم حكايات الزاهدي، وما نُسب إليه من خوارق ومعجزات، اعتادوا الاستشفاء بتراب قبره. حملوا نذور النقود واللحم والفول النابت والفطير والدقيق والسكر والعسل والتمر، دفعوا الهبات والصفات والنذور، ينفق الخادم من حصيلتها على مولد الشيخ السنوي.

خيَّم مريدوه والمؤمنون بمناقبه حول المقام، حتى تخلَّق ما يشبه الحي المنفصل عن بحري، والمتصل به. أهملوا التردد على أضرحة أولياء الحي ومقاماتهم، وخيام الرواة، وحلقات الذكر، ومجالس قراءة القرآن. تحولت الساحة — أمام الضريح — إلى سوق كبيرة، تشغي بالأحباب والمريدين والتلاميذ والأصحاب والمحاسيب والهتافات والأدعية والتهدجات، وسرادقات الإنشاد والمديح والخطب، والسماع والغناء، وأكشاك الحلاقة والختان والوشم، والباعة وألعاب المولد.

سكت مريدو أولياء الحي عن الشرط الذي حمله خادم الزاهدي، أن تكون كلمته نافذة على كل الشيوخ؛ يلتزمون بما يقضي، من يأذن له بورد يرفض أن يتركه أبدًا، هو الورد الذي رضي به الشيخ، ومن واجب المريد ألا يخالفه.

أعلم أن المرأة خاصمت مقام الزاهدي؛ لأنها قدَّمت من مدينتها البعيدة ما يفوق طاقتها من الهدايا والأعطية والنذور، فلم يزايلها العقم، طال ترددها على المقام، بعد أن أسلمت نفسها لجراحات صغيرة، لكن حلم الإنجاب ظل بعيدًا.

نقل إليها الخادم خليل قول الزاهدي — لم يقل الميت شيئًا، إنما هي فِرية أملاها تشويش على ذهنه — إن ما تعانيه عيب خلقي في رحمها، تسلم جسدها للدحرجة، فيغيب العيب، ويسترد الرحم عافيته.

خص الله دحديرة أبي العباس ببركاته، من يصعد إليها، أو يهبط منها، في المسافة بين الميدان وشارع الموازيني، ويكثر من الأدعية والتشفع في ولي الله؛ ينعم بالطمأنينة والستر في حياته، ومن تسلم جسدها للتمرغ على الأرض الترابية، يمنحها الله ما استعصى على بطنها من الخلفة.

حدد الولي أربع مراحل؛ أولاها التقلب على الدحديرة، يليها الكشف، والاستمالة، وإخراج المعاناة من الجسد المتعب.

حين أبدت المرأة تخوفها، تحدث الخادم عن حسن الاعتقاد في ولي الله، وأن الإيمان بقدرات الولي، والتسليم بأوامره، وسيلة التغلب على أوجاعنا.

أقنعت نفسها بالتمرغ على الدحديرة، البركة هي ما يهمها، لا يشغلها إن كان السر في القرب من جامع المرسي، أم في الولي الذي انتهت أيامه.

لقَّنها الخادم تعويذة الدحرجة، كرر التعويذة حتى حفظتها جيدًا، تبدأ قولها ببداية الفعل، لا تسكت حتى تتمها، تكررها في توالي الدحرجة، إلى النهاية التي حددها الولي. ينفض الجسد عنه ما تلبَّسه من جان وأشباح وأرواح شريرة، يساعد على الفعل ما يردده خليل من تعازيم وتعاويذ، نقلًا عن ولي الله، تحل على الجسد بدلًا مما تنزعه عنه بركات الولي وكراماته.

عملت المرأة بنصيحة ولي الله، أهملت جسدها أعلى الدحديرة، تدحرج الجسد بما لم تتوقعه، ولا تصورته، كأن يدًا خفية تدفعه، تزيد من انحداره على الدحديرة، شملتها ارتعاشة لم تستطع إيقافها، ولا السيطرة عليها، كأن الشيطان مسَّها، أو حلت فيها روح تعكس وجودها، في اختلاط النشيج والصراخ والعبارات المدغمة.

لم تفلح المرأة في التشبث بنتوءات الحجارة، ولا صيحات الاستغاثة، ولا العوائق التي قذف بها الناس أمامها، سقط حتى الرجال الذين حاولوا إيقاف اندفاع الجسد، كأن قوًى خفية أملت على جسد المرأة إرادتها، اتسعت — بتوالي الدحرجة — مواضع انبجاس الدم، غطت الجسد بالحمرة.

توقف الجسد — ببركات الست مدورة — أول الدحديرة، لحقتها يدا الست الطاهرتان قبل أن يأخذها الموت. أنفاس المرأة تشي بحياتها. ما أثار انتباه الناس وفزعهم، تدفقُ ما يشبه الدماء السوداء من جسدها، تصاعدت الدماء مثل نافورة، غطت المكان في دائرة واسعة حولها، وتناثرت على الجدار الجانبي للجامع، وعلى واجهات البيوت المقابلة.

ما جرى للمرأة لأن الشاذلية من المريدين، والساعين إلى النصفة والمدد، استغاثوا بالأولياء في بحري كي يطمسوا ما يمتلكه أتباع الزاهدي من السحر الأسود.

صحب الناس المرأة إلى مستشفى رأس التين، لقيت رعاية، استردت بها صحتها، عادت إلى زوجها قطب الطويل الفريش في حلقة السمك وأبنائها الثلاثة.

نظرات الغضب تابعت الولد خليل وهو يمضي فوق قارب مبتعدًا في اتجاه أفق المالح، حتى اختفى.

تملَّكَت مريدي الزاهدي الحيرةُ، وعجزوا عن التصرف.

بدا ذلك هو الوقت المناسب ليعرف الناس من الشيخ عبد المولى الطويل، شيخ الطريقة الشاذلية، أن المرسي يرفض ما لم يقضِ به.

أدرك الناس أن قطب الشاذلية لا يعرف الولي الجديد، وأنه من اختراع مريدي طريقته. زرع الكراهية في نفوس المريدين، فهم يرفضون ما عدا أفكاره وأقواله وتعاليمه وأوامره، والسير في طريقته.

عرفوا أن الضريح في الأرض الخلاء يضم من لا يملك شفاعة ولا مددًا، المكاشفات والبركات في حياته، وبعد رحيله، دعاوى مريديه، هي تآليف وحكايات نسجتها الأخيلة، يضيف إليها احتواء الطريقة من يعتقدون السحر والكهانة، من مريدي طرق أخرى، أو أنهم بلا طرق ينتسبون إليها.

عادت معارك الشوم والسيوف والسكاكين والزجاجات المليئة بالرمل، وغيرها من المعارك التي تصوَّر الناس زوالها بزوال أيام أبي خطوة وحميدو الفارس وعلي التتة ومحمد الدلو ومحمد النجرو والسكران.

انطفأت الشعلات في أيدي الآلاف من مريدي الزاهدي، بدت الطريق مسدودة، أو تفضي إلى خواء.

ظلت الساحة خالية موحشة، لا يتحرك فيها سوى اختلاط التراب والرمال والأعشاب الجافة والأوساخ، تدفعها الريح القادمة من البحر.

توقعي — بحدس النبوءة — قلة عدد المترددين على الضريح بنذورهم وهداياهم ودعواتهم بالشفاعة والمدد حتى التلاشي، تتهرأ كسوة المقام، وتشحب خضرتها، وتتشقق

في جوانب منها، ويتقشر الطلاء، تمسي بلا لون. تهرؤ أعلام الطريقة وبيارقها في الزوايا، تمزقها، تحولها إلى أعمدة خشبية بلا زينات وتعاليق.

يقيني أن الزاهدية — في قادم الأيام — من الماضي، يتذكرها الناس للدرس والعبرة.

١٩

رنوت إلى شمس الأصيل الغاربة، والمآذن وأسطح البنايات والأدوار العليا.

أخذتني الطريق، لم ألحظ الشوارع التي سرت فيها، ولا إلى أين تتجه. اخترقت الشوارع القريبة من البحر، كل شارع لا بد أن ينتهي إليه، تركت لقدميَّ السير في الشوارع الضيقة، المتوازية، المتقاطعة، المتشابكة، المتسربلة بالرمادية أو بالظلمة، المتجهة — في تلاحقها — إلى طريق الكورنيش، في يقيني الله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله. أفتش بين الوجوه عن وجه أعرفه، ينادي كلٌّ منا الآخر باسمه. أطيل التوقف أمام المزارات التي يُستحب فيها الدعاء. أبذل للكثيرين ما أقوى عليه من الإحسان والصلات. أنزل السلالم المتكسرة إلى السراديب والأركان والحنايا المظلمة والبدرومات. أتلو الرقى والتعاويذ، أهمس بأدعية تُذهِب الشر، أحرص على فعل الشيء الصحيح، أن يكون كل شيء في موضعه تمامًا.

حل المساء، بعد أن توارت الشمس في نهاية الأفق، مخلِّفة وراءها ألقًا من اختلاط الألوان. أُضيئت المحالُّ والمقاهي والكازينوهات على طول الكورنيش، من مرسى القوارب إلى انحناءة الشاطبي.

أعرف الكثير ممن يكتفون بالقرآن الكريم والحديث الشريف والسنة المحمدية، لا يجاوزونها إلى ما يرَونه مزاعم وانحرافات وميلًا إلى الزندقة. يرفضون المتصوفة، ويستنكرون الشيعة والخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية وغيرها، أما الزنادقة والملاحدة والمارقون من الدين فإن موضعهم في قاع الجحيم.

فاعلم أن التعبير عن الإيمان هو في يقيننا ليس بتلاوة القرآن والذكر والصلاة والقيام والصوم، وإنما بفطرة القلوب على الإيمان. التصوف لا يقتصر على الحضرات والأوراد والأحزاب والتهدج. نور الذكر المنبثق من إخلاص المرء، يتقيه الشيطان، فلا يحاول الاقتراب.

أشعر أن أوقاتًا قاسية على وشك المجيء.

طريق الصوفية تختلف عن الطرق التي يسير فيها الناس العاديون. للصوفية أسرارها التي تستعصي على الأفهام. على المرء أن يحسن التوقعات ودراسة الاحتمالات، لا يهمل أي شيء مهما يبدُ تافهًا وبلا قيمة. ذرة الغبار قد تؤذي العين.

يسقط المرء منذ مولده في الكثير من الحفر، يخلِّص جسده ونفسه، لا تنتهي معاناته إلا في الحفرة الأخيرة، حفرة القبر.

علمتني الصوفية أن الإيمان يستطيع تحريك الجبال، الصوفي — بالاستغراق في التأمل — قد يصبح واحدة من موجات البحر.

ما اختبرته في الحياة الدنيا، وفي البرزخ، ومن يقين إدراكي بأن ولي الله يعرف البدايات والنهايات، الطبائع والهواجس وما تحمله النفس. يخاطبه الناس بالضرورة بما في نفوسهم.

هل الخطأ في الفهم، أو في تقصير الأولياء عما أهَّلهم له العلم؟

الصوفي الحقيقي لا يسأل كيف تستغرقه الصوفية، ماذا يفيد من طرائقها، وإلى أي الفرق يتجه. هو يُقبِل على العبادة بالحب المبرَّأ من الشوائب، لا غرض شخصيًّا، ولا سعيًا إلى المكاشفات والكرامات وخوارق الأفعال، هو يحب الذات الإلهية وحدها.

أذكر عظتي في جامع العطارين: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة.

الصوفية طريق الرياضة والمجاهدة. البعرة تدل على البعير، والصوفي يرى أثر قدرة الله في كل شيء.

الصوفي يتخلق بأخلاق الله.

إذا كان مريدو الصوفية ينجذبون إلى ولي، يلتمسون مدده، يستمطرون بركاته وأفعاله الخيرة، فإن انجذاب الصوفي الحقيقي إلى الله تعالى، يحظى بالقرب والوصل في ظل أنس الله ورحمته.

تفرعَت عن الطريقة الأحمدية ست عشرة طريقة، لاحظت التشابه فيما بينها، ما تنسبه كل فرقة لنفسها من تفرد في الطقوس والأذكار لا يكاد يبين.

أجد في الطريقة الرفاعية ما يدعو إلى تقديرها، يحزن القطب أحمد بن علي أبو العباس لمن ينضمون إلى الطريقة بلا حرفة يعملونها، والاطمئنان إلى الدعة وفقدان الهمة. الغلو في المذاهب والفرق مما يصعب التهوين منه، أو إغفاله. لا شأن لولي الله الرفاعي بشق

الجلابيب، ولطم الخدود، وابتلاع النار، وأكل الثعابين والحيات، ومضغ الزجاج المجروش، والتمدد على المسامير، وغرس الأسياخ في الوجنات، وضرب الصدور بالسلاسل الحديدية.

الصوفي يسلك الطريق الصحيح، ما دام على الكتاب والسنة، مقيد بهما.

لا يخرج الصوفية عن طريق أهل السنة والجماعة، طريق روحي يحرصون على السير فيه.

المسالك لا نهاية لها، أو أنها مسدودة لو ابتعد المرء عن الكتاب والسنة. الوقوف عند حدودهما، وضبط إلهاماته وتصرفاته وأقواله عليها.

أول ما يُعنَى به أولياء الله تيسير ما تعسَّر من أحوال المسلمين، وحل ما تعقد من أمور حياتهم، والتفريج عن الكربات التي يعانونها، ومساعدتهم على تطهير أنفسهم من الآثام، وتفريغها عن كل ما يشغلها. عندما شاركت في الحروب، فقد كان ذلك لنصرة المسلمين، الضعفاء منهم خاصة.

ما يشغل الأولياء تقريب الشرع من أفهام الناس، وتبصيرهم بمبادئ الكتاب والسنة، وريادتهم إلى ما فيه صالحهم الشخصي، وصالح الأمة. أشفق من التصور أن الولي يقدر على كل شيء؛ يحيي الموتى، يشفي المرضى، يعين الناس على مجاوزة قساوة الظروف. أوقِن — أو أكاد — أن من يرتدي خرقة التصوف، لم يستحم، ولا بدَّل، أو غسل، ما ارتداه من سنوات. يكاد يبلغ مرتبة الشرط أن من ينضم إلى الشاذلية لا بد أن يكون مشتغلًا بحرفة.

الصوفي لا يحيا عالة على الغير. بل يشغل ذهنه، يتعب بدنه، يكسب من يديه. أعرف متصوفة زاولوا من الأعمال والحرف ما تعجز عن أدائه أبدانهم الضعيفة.

الدوائر تتلاحق، المسالك تفضي إلى دروب ومفارق وتقاطعات ومنعطفات، تعاني التشابك في الخلاء والسواحل والبنادر والمأموريات والمراكز والنواحي والقرى والعزب والكفور، ما يذكِّرني بشاذلة، قرية الإقامة في تونس، قبل أن أتجه إلى مصر.

ثمة شيء غيبي تلوح نُذره وتأثيراته. يفتقد المرء اليقين، فتتساوى نظرته إلى كل الأشياء. نظرتي في المآذن والأبراج والقلاع وأسطح البنايات والأدوار العليا.

جاوزت المشاهد القريبة إلى ما في امتدادات الرؤى من الميادين والشوارع والحارات والأزقة، والأسواق والدكاكين، والدور والقصور، والوكالات والحمامات والرباع والقيساريات، والطواحين والأفران، والفنادق والقهاوي، والكتاتيب والجوامع والمساجد والزوايا والمدارس، والأسبلة والمستشفيات، والمعسكرات والغيطان ومساقي الدواب وأبراج الحمام والأسوار.

قبل أن أبدأ الخطو، رنَت عيناي إلى السماء.

أطلتُ التأمل، ثم واصلت السير.

المسالك على حالها، لكن الأعين لا تحسن الرؤية ولا التبصر، تنشغل بالجوانب والتفريعات، فتخطئ اتساق الطريق.

لمَ لا يلجأ الأولياء وخلفاؤهم إلى علمهم، ورؤاهم الصائبة، لإغاثة فرق الصوفية من المزالق التي تنحدر إليها؟

الرسل والأنبياء والأولياء أكمل العارفين. النُّذر تشي بما يغيب عن البصر غير المتبصر؛ أُهملَت موارد الرزق، تماهى الحلال والحرام، كثر السلب والنهب، غاب الأمن، ذوى العزم وتلاشى في نفوس المسلمين، عانى الناس منعهم من الأخذ بالأسباب، والإرهاق الذي يصعب احتماله، ومن استشراء الفساد والفتن والشرور. انطوى بساط الخير من تحت الجميع.

لا شأن للصوفية بزمان ولا مكان، هم مسئولون عن ناس العالم، أي أرض يعيش فوقها مسلمون، وهب الله الصوفي أسراره، وأراه ما يغيب عن أعين الآخرين، يصبح البعيد عن مكانه قريبًا، يخترق الجدران، يعبر الأبواب الموصدة، يَرى ما لا يُرى، لا يصدُّه عائق من أي نوع، حتى المحيطات والبحار والأنهار، والجزر والجبال والكهوف والغابات والأودية.

شغلني أن أجوب أركان العالم الأربعة. أسيح في كل ما تطؤه قدماي، لا صحبة، ولا جواد، ولا حتى عصًا أتوكأ عليها، أمضي في مسالك أهل الصلاح، قضاة الديوان — صوت الغلابة والمنكسرين، ومن لا صوت لهم — أصحاب المكاشفات والكرامات ومشايخ الطرق. أشد الرحال إلى أضرحة الأولياء ومقاماتهم وجوامعهم ومساجدهم وزواياهم وخلواتهم في المدن والقرى، مهما يبتعد المكان.

اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا، من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟

أتاحت لي الأيام، وما حصَّلتُه من معارف وعلوم، وما أفدتُه من تجارب وخبرات، أن أتعرف إلى حقائق أهل القرب، من يعرفون الفَرق بين مسالك الرشد ومعالم الضلال. غاية همتي ومرادي بلوغ الإنسان المؤمن، أيًّا يكن موضعه. في داخل المرء تدينه الذي قد لا يختلف عن تدين الآخرين في جوهره، لكنه يختلف في فهمه للتفصيلات الصغيرة، ما ينبغي أن يكون عليه الأداء.

لن أَقصُر رحلتي إلى فِرق لها أقطابها الكبار.

سأمضي إلى الروافد، الفرق الصغيرة التي يؤمها شيوخ أرادوا القرب وليس إنشاء أنهار صوفية، السالكون في طريق القرب، لا أستثني حتى السالكين المبتدئين، الفرق التي تحاول

انتظام ترددات الأنفاس. من طال انتظارهم لهدي الطريق. نسبوا أنفسهم إلى الصوفية، فعليهم أن يعملوا بمبادئها، لا يخلطون بين قواعد التصوف وسلوكيات الحياة، يستغرقون — عن يقين وبصيرة — في بحر التوحيد والعرفان. أخاطبهم، يعينون أتباع فرقهم على عبور ما يعترضهم من مفاوز وأخاديد، ما يمنع الروح من عالم الرؤى والمشاهدات. ربما حذفت ما لا ينبغي إظهاره، واكتفيت بالإيماءة والإشارة، يستمر السالكون على المجاهدة، يمرون — بأحوالهم وليس بعلمهم — على المنازل والمقامات، يسلكون الطريق إلى غاية لا بد من بلوغها، عين الحكمة، عين اليقين. تتلاشى الظلمة، يحل بدلًا من الليل نهارٌ دائم، تحمل أشعة الشمس نسائم طرية، تختفي الرياح والعواصف والأعاصير، تتفتح الورود في غير أوانها، تتناهى ألحان علوية، تمتد آفاق ملكوت العظمة والهيبة والجلال.

سلكت طريق البحر، سرت في موازاته.

الشمس تشرق ثانية، ترافقني.

أتوق للقاء من أصارحهم بما في نفسي، ما يعانيه الناس، وأعانيه، وأطلب الفهم.

مصر الجديدة، ٢٠١٩م

هنداوي